أنطوان تشيخوف

عَنْبَرُ 6 وقَصَصٌ أُخْرَى

Ward No .Six

روائع الأدب العالمي

ترجمة : مصطفى علي

مكتبة
Telegram Network
2019

AL WALID

عَنْبَر 6 و قَصَص أُخْرَى ا

تأليف أنطونْ تشيخوفْ

ترجمة مصطفى علي

«المكتبة النصية»

:قام بتحويل كتاب

) عنبر 6 وقصص أخرى (

-ل Anton Chekhov

:إلى صيغة نصية

فريق الكتب النادرة

:تنسيق

مروة جمال

قناة التليجرام

تويتر

اسم الرواية عَنْبَر 6 وقَصَصٌ أُخْرَى

تأليف أنطونْ تشيخوفْ

ترجمة مصطفى علي طه

المراجعة اللغوية والتدقيق عبدالرءوف سعد

تصميم الغلاف قسم الجرافيك

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

الترقيم الدولي بدار الوليد 23347/2013 -977-376-827-8
978

الطبعة الأولى 2014

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: 2256870

دمشق: مكتبة رياض العلبي - خلف البريد - ت: 2236728

مكتبة النوري - أمام البريد - ت: 2210314

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: 2228222

مكتبة الفتال - فرع أول - ت: 2456786 - فرع ثاني - ت: 2373
الوليد للدراسات والنشر والترجمة سوريا - دمشق - الحجاز -
شارع مسلم البارودي

تلفاكس: 2235401/11/00963

ص.ب 34825 مصر - القاهرة - 52 شارع عبدالخالق ثروت -
شقة 11

تليفون: 23916122 - فاكس:23933671

لبنان - تليفون: 434186/05 - 652241/03 - ص.ب 3043
الشويفات

darelwalid@yahoo.com/ حقوق الطبع محفوظة
darelwaled@yahoo.com

تحذير: جميع الحقوق محفوظة لدار الوليد للدراسات والنشر والترجمة وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبَقة من الناشر.

تقديم

أنطون تشيخوف صاحب هذه المجموعة المختارة من القَصص القصيرة كاتب روسي برع في كتابة القصة والمسرحية، ولد سنة 1 وتوفي سنة 1904. كان جده لأبيه من عبيد الأرض، افتدى نفسه وأسرته بالمال. وكان أبوه تاجراً صغيراً، أفلس واضطُّر سنة 1876 إلى الهرب من «تاجانروج» مدينته الأصلية إلى «موسكو» تخلصاً من ملاحقة دائنيه وتبعته أسرته إلا ابنه أنطون الذي بقى في مدينة «تاجنروج» ليواصل دراسته. وفي سنة 1879 أنهى دراسته الثانوية بتفوق والتحق في العام نفسه بكلية الطب في جامعة موسكو. وفي العام التالي بدأ بنشر بعض قصصه القصيرة والتعليقات الساخرة في الصحف الفكاهية بأسماء مستعارة. وفي سنة 1884 أنهى دراسته الجامعية، وبدأ في ممارسته المهنة. ولكنه سرعان ما هجر الطب وفضَّل ممارسة الكتابة والعمل الأدبي.

بدأ تشيخوف نشاطه الأدبي كاتب «منمنمات» فكاهية، وارتقت موهبته الفذة بهذا الصنف الأدبي شكلاً ومضموناً حتى أوصلته إلى قمة الإبداع الفني، كما في قصص: موت موظف أو الحرباء. وبلغ ما كتبه تشخوف في غضون السنوات الخمس الأولى من نشاطه الإبداعي نحو 400 قصة وملحمة وخاطرة نقدية ساخرة، صوَّر فيها شخصيات تنتمي إلى مختلف الشرائح الاجتماعية، وسلط الضوء على طبائع أبطاله، فاضحاً صغار النفس، وضيق الأفق، وبلادة الحس والذهن.

وساخراً من التفاهة والنفاق والجبن والقسوة، وكل ما يحرف

الإنسان عن إنسانيته ويشوّه حياة المجتمع.

ومنذ النصف الثاني من ثمانينيات القرن التاسع عشر شرع تشيخوف في تناول موضوعات وظواهر اجتماعية تتسم بالعمق والأهمية والشمول، وكتب قصصاً طويلة ذات طابع وجداني نفسي ومحتوى اجتماعي فلسفي. وفي التسعينيات ذاعت شهرة تشخوف في أوروبا بأسرها، وأبدع قلمه روائع مشهورة منها: «عنبر 6»، «والمنزل ذو العليَّة»، و«الرجل المعلَّب»، و«ايونيتش»، و«ثلاث سنوات»، وغيرها. وفي هذه الأعمال تفاعل تشخوف فنيًّا مع أهم المسائل الملحَّة في عصره، ورسم في قصصه صوراً فنية مكتملة تنطوي على تحليل عميق للواقع، ويثير بعضها في القارئ - على نحو غير مباشر - مشاعر الرفض للحكم القيصري المستبد، ولواقع التفاهة والجشع واللهاث وراء المصالح المادية الدنيئة.

وإلى جانب القصص التي تصور نماذج المثقفين ودورهم في المجتمع، كتب تشخوف قصصاً تصور حياة الفلاحين بتناقضاتها وتعقيداتها وسماتها من جهل وقسوة وبلادة، مما أوجدتها الأحوال الاجتماعية السائدة، والطيبة الفطرية المكبوتة وبذور المشاعر الإنسانية الرقيقة التي لا تجد التربة المناسبة لنموها وازدهارها، وتمثل كل ذلك في: «الفالحون»، وفي «الحضيض»، وفي «العروس». وغيرها.

ويتسم أسلوب تشخوف بالإيجاز والكثافة والرشاقة ويُعد من أجمل أساليب الكتابة في اللغة الروسية – ولا نبالغ إذا قلنا في العالم أجمع

– وقد تخلى الكاتب في مرحلة النضج عن اللجوء إلى التوتر الخارجي والإثارة الحادة في الحدث، وصار يعتمد على دينامية الحبكة الداخلية التي توحي للقارئ بأن ثمة نصًّا آخر يختفي خلف النص المكتوب، عليه هو أن ينفذ إليه ويقرأ ما بين السطور.

وكما كان تشيخوف رائداً ومجدداً في فن كتابة القصة – والقصة الواقعية على وجه الخصوص – كان كذلك في المسرح. ومن أشهر المسرحيات التي كتبها:

«العروس»، و«النورس»، و«الخال فانيا» و«الشقيقات الثلاث»، و«بستان الكرز».

والميزة الرئيسية التي يتميز بها مسرح تشيخوف هي التخلي عن تقسيم الشخصيات إلى (أخيار) و(أشرار)، وتفادي أحادية الجانب في تصوير الطبائع، والتخلي عن الحبكة ذات العقدة المثيرة والاستعاضة عنها بالحبكة الداخلية المرتبطة بالعالم النفسي للأبطال. ولا يقوم بناء المسرحية عند تشيخوف على أساس التصادمات المباشرة بين الشخصيات، بل على أساس نزاع داخلي عميق يظهر علاقات الشخصيات بواقعهم، ويكشف عن نفسياتهم وطبائعهم.

والحدث الدرامي الحقيقي في هذه المسرحيات ليس هو الذي يجري على الخشبة بقدر ما هو ذلك الذي يتولد في وعي المشاهد الواقع تحت تأثير الجو الوجداني العام للمسرحية وردود أفعال

الشخصيات المتجلية في الانفعالات والحوارات التي تتخذ في كثير من الأحيان شكلَ المفاجَأة الذاتية.

وقد عالج تشيخوف في مسرحياته مسائل الحب والفن والعمل، والتوق إلى الخلاص من رتابة الحياة اليومية الضحلة. والانطلاق نحو آفاق العمل الخلاَّق والعلاقات الإنسانية الصادقة..

وقد تأثر تشيخوف في أسلوب كتابة قصصه بكل من بوشكين وليرمنتوف وجوجول وتورجينيف وتلستوي. كما أثَّر في معاصريه من كبار الكتاب الروس أمثال مكسيم جوركي والكسندر كوبرين وفلاديمير كورلينكو وغيرهم. وقد امتد تأثير تشيخوف إلى خارج روسيا ليشمل كل كتاب القصة في العالم، سواء كانوا من معاصريه أو الأجيال التي جاءت من بعده، وحتى الآن!

III

فانكا

كان فانكا الذي يبلغ من العمر تسع سنين يعمل لدى الياخين صانع الأحذية منذ ثلاثة أشهر.. وفي ليلة عيد الميلاد لم يحاول الغلام أن يذهب إلى فراشه، فقد انتظر حتى يذهب سيده وسيدته ورفاق المهنة الكبار إلى الكنيسة، ثم تناول من الدولاب ريشة كتابة ذات سن يعلوه الصدأ، ونشر أمامه صحيفة ورق كلها ثنيات وغضون واستعد للكتابة. وقبل أن يبدأ الكتابة ألقى عدة نظرات قلقة على الباب والشباك. ثم نظر إلى الأيقونة الداكنة والرفين المحيطين بها من كلا جانبيها واللذين يحملان قوالب الأحذية، وأطلق زفرة متقطعة عميقة. كانت الصحيفة منشورة على ظهر الطاولة، وأقعى فانكا بركبتيه أمام الطاولة، وكتب: «جدي العزيز قسطنطين ماكارتش، أكتب إليك هذا الخطاب، لأبعث إليك بتحيات عيد الميلاد، وأرجو أن يسبغ الله عليك بركاته، فقد حُرمتُ من الوالد والوالدة، وأنت كل ما بقى لي في هذه الحياة».

ورفع فانكا عينيه نحو زجاج الشباك المعتَّم الذي يعكس خيال الشمعة المتموج ورأى بخياله صورة واضحة لجده الذي يعمل حارساً ليليًّا في عزبة أسرة من صغار النبلاء تسمى أسرة جيفاريف. وكان هذا الجد رجلاً قصيراً نحيفاً هرماً يبلغ الخامسة والستين من عمره، ولكنه بادي الحيوية، خفيف الحركة، مبتسم

الوجه، دائماً مطفأ العينين من كثرة الشرب، لا يكف عن المزاح مع الطباخ أو خادمات المطبخ. أما في الليل فكان يلتف بمعطف فضفاض مصنوع من فراء الغنم، ويدور حول العزبة وهو ينفخ في بوقه ومن خلفه يسير كلباه مطأطئي الرأس وهما كاشتنكا العجوز وكلب آخر يدعى إيل، وقد أطلق عليه هذا الاسم بسبب فرائه الأسود الطويل وجسمه الذي يشبه جسم ابن عرس. وكان شديد الجفاء والتزلف بشكل غريب، يبعث بنظراته الضارعة إلى الأصدقاء والغرباء على السواء. ولكن مظهر الطاعة والتبجيل هذا لم يكن لديه إلا غطاء يستر أشد ضروب الحقد والنفاق والخبث، إذ أنه كان بارعاً في السرقة والانقضاض خلسة على أقدام العابرين والتسلل إلى الثلاجات واختلاس دجاج الفلاحين وكانت ساقاه الخلفيتان قد شجت مراراً وخيط جسمه مرتين، كما كان يضرب في كل أسبوع ضرباً يجعله قاب قوسين أو أدنى من الموت. ولكنه نجا من كل هذا.

لعل الجد كان في هذه الساعة يقف أمام الباب الكبير ويُشحذ عينيه ليستطيع النظر إلى النور الأحمر البراق المنبعث من شبابيك الكنيسة، أو يضرب الأرض بحذائه المصنوع من اللباد ويهرِّج مع الخدم.

وقد يكون ممسكاً بعلبة السعوط في يده ويقول لمن حوله من النساء: «خذي نشقة». وفي هذه الحال تتناول كل منهن قليلاً من السعوط بين إصبعيها ثم تأخذ في العطاس. ويكاد الجد يطير من السرور، ثم ينفجر بالمرح والضحك والصياح. ويقول: إنه يفيد

الأنوف التي جمَّدها البرد!

ولابد أن يقدم السعوط حتى للكلاب. أما كاشتنكا فكانت تعطس في بعض الأحيان، ثم تحرك رأسها وتنصرف غاضبة. وأما إيل فكان وقاره يمنعه من العطاس، ويكتفي بتحريك ذنبه.

وقد كان الجو رائعاً هذا المساء، والهواء ساكناً عليلاً شفافاً، أما الليل فكان شديد الظلمة، ولكنه كان من الممكن رؤية القرية جميعها بكل وضوح، بسطوحها البيضاء والدخان المتصاعد من مدافئها والأشجار التي حوَّلها الجليد إلى بياض الفضة وبريقها. وتلال الثلج المتراكم وكانت السماء مُزدانة بنجومها المتلألئة اللامعة.

ونهر المجرة يبرز في صفاء ووضوح كما لو كان قد غُسل وصُقل بالثلج بمناسبة العيد.

تنهّد فانكا وغمس ريشته في المداد وشرع يكتب:

«وبالأمس ضُربت ضرباً موجعاً، حيث جذبني المعلم من شعري وجرني إلى الفناء وانهال عليَّ ضرباً بالسوط لأني نعست بينما أهدهد طفلهم».

وفي يوم من أيام الأسبوع الماضي كلفتني سيدتي بنزع قشر سمكة من سمك الرنجة، وبدأت من ناحية الذيل، فانتزعتها من يدي وحكت وجهي برأسها، والصبيان الآخرون لا يكفون عن السخرية

مني.

فهم يرسلونني لإحضار الفودكا من الحانة ويرغمونني على سرقة خيار المعلم، فيضربني المعلم بأي شيء تصادفه يده. وليس لدي ما آكله فهم لا يعطونني إلا الخبز في الصباح، وبعض الحبوب المجروشة في الغداء، ثم القليل من الخبز في المساء أيضاً، ولا أحصل على شيء من الشاي أو حساء الكرنب، لأنهم يحتفظون بهما لأنفسهم. وهم يجعلونني أنام في الممر، فإذا صاح طفلهم لم يحق لي أن أذوق طعم النوم، إذ يجب عليّ أن أذهب لهدهدته.

جدي العزيز أستحلفك بالله أن تنتشلني من هنا، أن تأخذني إلى البيت في القرية، فإني لم أعد أطيق البقاء. يا جدي أرجوك وأتوسل إليك وأصلي دائماً من أجلك لكي تأخذني بعيداً من هنا وإلا مت.

وتدلت شفتا فانكا، وراح يدلك عينيه بقبضة يده السوداء، ونهنه باكياً ثم استمر يكتب:

«سأطحن لك السعوط وسأصلي لك، وفي وسعك أن تضربني بأقسى ما تشاء، إذا بدا لك أني ولد شقي. وإذا رأيت أنه لا يوجد عمل من أجلي فإني سأرجو رئيس الخدم أن يعطف على ويعطيني الأحذية لكي أقوم بتنظيفها، أو سأعمل صبي راعٍ بدلاً من «فديا».

جَدِّي العزيز، أنا لا أستطيع احتمال هذه الحال، إنها تقتلني، لقد فكرت كثيراً في أن أذهب إلى القرية مشياً على الأقدام، ولكني لا

أملك حذاء وأخشى الجليد، وأعدك أني حينما أكبر وأصبح رجلاً، أن أعني بك وأمنع أي شخص من إيذائك، وإذا مت فسأصلي من أجلك كما أصلي من أجل أمي».

«إن موسكو مدينة كبيرة وفيها كثير من بيوت السادة وعدد كبير من الخيل، وليس فيها غنم، والكلاب فيها غير مسعورة. الأطفال لا يخرجون مع النجمة ليلة عيد الميلاد، كما لا يسمح لك بالغناء في الكنيسة وقد رأيتهم ذات مرة يبيعون في الدكان صنارات العيد ومعها الخيط، ولكل ما نشاء من أنواع السمك، وهي صنارات جديدة جدًّا، وكان هناك صنارة تستطيع صيد سمكة يبلغ وزنها ثلث قنطار. وقد رأيت دكاكين فيها كل أنواع البنادق مثل تلك التي لدى المعلم في بيته.

لابد أن الواحدة منها تساوي مائة روبل. ويوجد هنا في دكاكين الجزارين أرانب برية ودجاج من أنواع شتى، ولكن أصحاب الدكاكين لا يقولون من أين صادوها.

«جدي العزيز، حينما ينصبون شجرة عيد الميلاد في البيت الكبير خذلي بندقية مذهبة، واحتفظ لي بها في الصندوق الأخضر.

اسأل الآنسة أولجا أجناتيفنا وقل لها أن تحتفظ ببنقدقيتها لفانكا».

وزفر فانكا زفرة حادة، ثم نظر إلى الشباك مرة أخرى، وتذكر جده ذاهباً لإحضار شجرة عيد الميلاد من أجل سادته وقد اصطحب

طفلة صغيرة معه. فيالها من أيام سعيدة تلك الأيام الخالية!

وكان من عادة الجد أن يمصمص بشفتيه كما تمصمص الغابة المغطاة بالجليد. ويسير فانكا على مثالهما فيمصمص أيضاً. وكذلك كان من عادة الجد قبل أن يجتث شجرة الصنوبر أن يدخن غليونه ويتناول نشقة ضخمة من النشوق ويضحك لفانكا الذي يرتعد من البرد، وكانت أشجار الصنوبر المتدثرة بالجليد تقف دون حراك منتظرة أن ترى أيها سيحل به الموت، وفجأة يقبل أرنب بري وهو يقفز فوق أكوام الثلج بسرعة السهم المنطلق.. ولم يكن الجد يستطيع منع نفسه من الصياح بقوله:

«أوقفوه! أوقفوه!.. أوقفوه! أوه أنت أيها الشيطان الأبتر!!».

وكان الجد يجر الشجرة حتى البيت الكبير، وهناك يبدءون في زخرفتها.. وكانت الآنسة أولجا اجناتيفنا تبدو أكثر الجميع نشاطاً واهتماماً.

وحينما كانت بيلاجيا والدة فانكا لا تزال حية وفي خدمة البيت الكبير، كان من عادة أولجا أجناتيفنا أن تقدم لفانكا بعض الحلوى وتسلي نفسها بتعليمه الكتابة والقراءة والعد حتى رقم مائة، بل وتعلمه رقصة الفرسان. ولكن بعد أن ماتت بيلاجيا أنزل فانكا اليتيم مع جده في المطبخ، ومنه إلى موسكو، ثم إلى الياخين صانع الأحذية..

ثم واصل فانكا كتابته قائلاً:

«تعالَ إليَّ يا جدي العزيز. أرجوك باسم الرب أن تأخذني من هنا رحمة بي أنا اليتيم التعس الذي يضربونه في كل حين. وأنا هنا دائماً جوعان بائس، ولا أستطيع أن أخبرك بأني لا أكف عن البكاء. وفي ذات يوم ضربني المعلم على رأسي بأحد القوالب فسقطت على الأرض، وظننت أنني لن أعود إلى النهوض مطلقاً. إن حياتي غاية في البؤس وأسوأ من حياة الكلاب. وأبعث بحبي إلى اليونا الأعور وبيجور والحوذي، ولا تعطي آلتي الموسيقية لأي أحد وسأظل حفيدك إيفان جوكوف، يا جدي العزيز، تعال».

وثنى فانكا صحيفة الورق أربع ثنيات ووضعها في ظرف كان قد اشتراه بكوبك في اليوم السابق.. وتوقف ليفكر قليلاً، ثم غمس ريشته في الدواة وكتب: «جدي».

وبعد ذلك حك رأسه وعاد إلى التفكير، ثم أضاف: «قسطنطين ماكارتش». القرية.

وشعر بالفرح لأن أحداً لم يمنعه من الكتابة، ثم نهض ولبس قلنسوته وخرج إلى الشارع دون أن يلبس جاكتته فوق قميصه.

وكان الرجال الذين في دكان الجزار قد أخبروه حينما سألهم في اليوم السابق، بأن الخطابات توضع في صناديق البريد، ومنها ترسل إلى جميع أنحاء العالم في عربة بريد ذات ثلاثة أحصنة

وسائقين سكارى وأجراس ترن. فجرى فانكا إلى أقرب صندوق بريد وأسقط خطابه الثمين في فتحته.

ولم تمر ساعة حتى كان الغلام قد غرق في النوم على هدهدة الآمال الحلوة. وحلم بموقد، وعلى حافة الموقد جلس جده يحرك قدميه الحافيتين ويقرأ الخطاب على أسماع الطباخين. وكان إيل يسير أمام الموقد جيئة وذهاباً، وهو يحرك ذيله.

III

القناع

اقيمت في أحد النوادي الاجتماعية حفلة رقص خيرية تنكرية، أو كما يطيب لفتيات المدينة أن يسمينها حفلة رقص مزيَّفة، كان الوقت منتصف الليل وقد حضر رجال الفكر بغير أقنعة – وكانوا خمسة – جلسوا حول مائدة كبيرة في قاعة القراءة، منكفئين بأنوفهم ولحاهم على أوراق الصحف وراحوا يقرءون في تكاسل – وأخذ أحدهم – وهو سيد من ذوي الآراء الحرة، يتأمل أقوال المراسل الخاص لصحف موسكو وبطرسبورج.

وكانت موسيقى الرقص تدخل من ساحة الرقص وتسبح في آفاق القاعة، والخدم لا يكفون عن الصياح خلف الباب وسط قرقعة الأطباق.

وفجأة مزق سكون القاعة صوت أجش مكتوم كأنه منبعث من أعماق أحد القبور يقول: «أعتقد أننا سنكون أهدأ بالاً في هذا المكان.. أقبلن! من هذا الطريق يا رفاقُ!».

وانفرج باب القاعة ودخل منه إنسان بدين عريض الكتفين يرتدي حلة حوذي ويضع في قبعته خصلة من ريش الطاووس ويغطي وجهه بقناع. ومن خلفه سيدتان مقنعتان أيضاً وخادم بين يديه صينية عليها زجاجة من مشروب روحي شديد المفعول وثلاث

زجاجات من النبيذ وعدد من الكؤوس وانطلق الرجل في القول: من هنا.. لا شك أن الجو هنا ألطف. ضع الصينية على المائدة. اجلسا يا آنستيَّ.. أرجوكما! إلى المقصف هيا، أما أنتم أيها السادة فانصرفوا.. إنكم تسدون علينا الطريق.

قال ذلك وهو يترنح بعض الشيء، فأسقط بعض المجلات من فوق المنضدة ثم واصل كلامه قائلاً: «دعوا ذلك وانصرفوا من طريقنا أيها السادة المنهمكون في القراءة، ليس هذا وقت الصحف والسياسة.. دعوها من أيديكم!» فأجابه أحد الحاضرين وهو ينظر إليه من خلال نظارته:

- أرجوك شيئاً من الهدوء. إن هذه قاعة قراءة، وليست مقصفاً.. ليست مكاناً للشرب.

- من قال ذلك! ألا ترون المنضدة وقد أعدّت، أم تريدون أن ينهال السقف فوق رءوسنا، يا للسخرية، ولكن ليس هذا وقت للكلام، ألقوا بصحفكم.. لقد قرأتم ما فيه الكفاية. إن نشاطكم يفوق الحد، هذا إلى أنكم ستضرون أعينكم، وعلى كل حال فالذي يهمني أني أريد أن تخرجوا، وهذا كل ما في الأمر.

ووضع الخادم الصينية على المائدة، ووقف بجوار الباب وعلى ذراعه مفرش صغير، وهجمت السيدتان من فورهما على النبيذ الأحمر.

وأخذ الرجل ذو القبعة المزينة بريش الطاووس يصب لنفسه كأساً من الشراب وهو يقول: «ومن الغريب أن هناك أناساً في غاية النشاط يفضلون قراءة الصحف على مثل هذا الشراب.. أعتقد أيها السادة الأجلاء أنكم مغرمون بالصحف لأنكم لا تملكون من النقود ما يكفي لشراء الشراب. أليس كذلك؟ هو هو! أنظر إليهم وهم يقرءون ماذا تقرءون في صحفكم؟! وأنت يا صاحب النظارة زوِّدنا ببعض المعلومات هو هو!! كفى كفى! لسنا الآن في حاجة إلى لطف عشيرتكم! تناولوا كأساً من الشراب!».

وتقدم الرجل ذو القبعة المزينة بريش الطاووس وانتزع صحيفة من بين يدي السيد صاحب النظارة، وتحوّل لون هذا الأخير إلى الأحمر تارة وإلى الأصفر تارة أخرى، وراح يحملق في ذهول إلى رجال الفكر الآخرين، الذين راحوا هم أيضاً يحملقون فيه، ثم صاح:

- إنك تنسى نفسك يا سيدي الطيب القلب. فهأنتذا تحاول أن تحول قاعدة القراءة إلى حانة، وترى من الطبيعي أن تشيع الفوضى وتنتزع الصحف من أيدي الناس، وأنا لا أسمح بذلك! إنك لا تعرف أيها السيد الطيب القلب، مع من تتكلم. أنا زستياكوف مدير البنك..

وأجابه الآخر:

- أنا لا أبالي مطلقاً بأن تكون زستياكوف أو غيره، وهأنذا أريك

رأيي في صحفك.

ثم التقط الصحيفة ومزقها إرباً إرباً:

فصاح زستياكوف بصوت مخنوق تمتزج فيه الدهشة بالغضب:

ـ ما معنى هذا؟! إن هذا لغريب، غريب إلى أقصى حدود الغرابة، إن هذا أمر مذهل، ولا أقل من ذلك!

وانفجر الذي يزيِّن قبعته بريش الطاووس بالضحك وهو يقول:

ـ لقد غضب الآن! آه يا عزيزي، لشد ما أخفتني! انظروا، انظروا إلى ساقي تترنحان من الرعب! الآن انصتوا إليّ أيها السادة الأجلاء، لندع المزاح جانباً، ولتعلموا أني لا أشعر بالرغبة في الكلام معكم.. وأريد أن أكون وحدي مع هاتين الآنستين، أريد أن أنال نصيبي من المتعة. فأرجوكم ألا تقلقوا خاطري، وانصرفوا بكل هدوء.

وهذا هو الباب يا سيد بليبوخين! فاخرج من هذا الطريق! لماذا تدير خرطومك أمامي على هذا النحو الكريه؟ إذ قلت لكم أن تذهبوا، فاذهبوا! وبأقصى سرعة، قبل أن يُقذَف بكم إلى الشارع.

فصعد الدم في وجه بليبوخين أمين صندوق جمعية الأيتام، وراح يهز كتفيه ويصيح:

- ماذا تقول؟ يا للعجب! شخص وقح يندفع داخل القاعة، وفجأة ودون مقدمات ينطلق قائلاً.. لا أدري ماذا.

وانقضَّت موجة غضب على الرجل ذي القبعة المزينة بريش الطاووس، وأخذ يصيح وهو يضرب بقبضة يده على الطاولة فيزلزل الكؤوس من فوقها:

- أتقول: شخص وقح؟ إلى من تظن أنك توجه كلامك؟ أتظن أن وسعك أن تنعتني بهذه النعوت، لا لشيء إلا لأني أضع قناعاً على وجهي؟ أأنت مجنون؟.. اخرج ما دمت قد أمرتك بالخروج.. وفي وسع مدير البنك هو الآخر أن يختفي من أمامي. اخرجوا الآن جميعاً لأني لا أطيق أن أرى وغداً واحداً في هذه القاعة! انصرفوا، إلى حظائركم أيها الخنازير.

واستشاط زستياكوف غضباً لدى سماعه هذه الكلمات، وبدت نظارته كما لو كانت تنضح عرقاً من شدة الاضطراب، وانفجر يقول:

- سترى عاقبة هذا الأمر، سأريك وقاحتك! هيه! هنا! إليَّ بأحد منظمي الحفلة!

ولم تمض دقيقة واحدة حتى أقبل رجل أحمر الشعر من منظمي الحفلة يعلق في عروة جاكتته شريطاً أزرق ويلهث من شدة المجهود الذي يبذله في الرقص. ولم يكد يدخل القاعة حتى اتجه

إلى الرجل المقنَّع وقال له:

- أرجوك أن تتفضل بمغادرة القاعة، فليس هذا مكاناً للشرب! اذهب إلى المقصف من فضلك.

ورد عليه الرجل المقنّع بقوله:

- من أين أقبلت أنت الآخر؟ أنا لم أطلب إليك الحضور! أتظن أني دعوتك؟

- كفى وقاحة من فضلك! اذهب لحال سبيلك!.

- انظر إلى عزيزي.. أنا أعطيك دقيقة واحدة.. وإذا كنت من منظمي الحفلة، وشخصية لها اعتبارها في هذا المكان، فما عليك إلا أن تطرد هؤلاء الفنانين.. إن آنستيَّ لا تحبان وجود أشخاص أجانب بالقرب منهما.. إنهما خجولتان.. وأنا حريص على أن آخذ بقيمة النقود التي دفعتها، وأريد أن أراهما على طبيعتهما دون كلفة..

فصاح زستياكوف قائلاً:

- يبدو أن هذا التعس لم يفهم حتى الآن أنه ليس في حظيرة خنازير! ادع بيفسترات.. أين بيفسترات؟!

ودوَّت أركان النادي الأربعة بالنداء: بيفسترات.. بيفسترات.. ولم

يلبث بيفسترات أن مثل بين الحاضرين، كان رجلاً هرماً يرتدي حلة بوليسية، وفي الحال صاح بصوت أجش:

- أرجوك أن تغادر القاعة يا سدي.

وقد أخذت عيناه المفزعتان تحملقان، وراح طرفا شاربه المصبوغ يتراقصان.

فانفجر الرجل المقنَّع بضحكة كلها مرح وقال:

- لقد أخفتني، بحق السماء.. يا له من وجه كله دُعابة، ألا ترى أن الله قد قضى عليّ بالموت؟!.. يا له من شارب كشارب القط، ويالها من عينين جاحظتين! هو هو هو!

وانطلق بيفسترات يقول بأعلى صوته، وكل جسمه ينتفض من الغضب:

- ليس هذا أوان المناقشة. اخرج وإلا أمرت أن يُقْذَفَ بك من النافذة!.

وأصبحت قاعة القراءة تعج بالصراخ والزئير، إذ راح بيفسترات يصيح بأعلى صوته ويضرب الأرض بقدميه، وقد صار وجهه في حمرة الجزرة، وأطلق بليبوخين لحنجرته العنان، كما أطلق زستياكوف لحنجرته العنان.. ولكن أصواتهم جميعاً ضاعت في ثنايا صوت الرجل المقنّع، ذلك الصوت الغليظ الأجش المخنوق ،

وفي غمرة هذا الهرج والمرج كف الراقصون عن الرقص وتدافعوا جيمعاً نحو قاعة القراءة.

وعلى إثر ذلك أمر بيفسترات باستدعاء جميع رجال الحرس المنتشرين في أرجاء النادي، ثم جلس يكتب تقريره.

فقال الرجل المقنّع وهو يلقي بإصبعه تحت القلم:

ـ أستحلفك بالله ألا تكتب! يالي من مسكين! ماذا سيحل بي الآن من نكبات؟ يا لي من مسكين! لماذا كل هذا الحرص على إيذاء يتيم مسكين مثلي؟ هو. هو! هيا إذاً!

هل انتهيتم من تحرير التقرير؟ أوقَّعتم عليه جميعكم؟ الآن، انظروا إليَّ!.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.

وحينئذٍ نهض واقفاً بكل قامته، ومد يده إلى قناعه فمزقه. وتريث لحظة يعرض فيها جسمه الثمل على الأشهاد، وينظر إلى فرد من الحاضرين ليستمتع بنتيجة فعلته في نفسه. ثم استلقى على الكرسي وانفجر في نوبة من الضحك. والواقع أن النتيجة كانت رائعة. إذ أخذ رجال الفكر يتبادلون النظرات المذعورة فيما بينهم، وكان بعضهم يحكّون ظهور أيديهم. أما بيفسترات فقد راح يسلّك حنجرته، كأنه شخص ارتكب إحدى الكبائر عن غير شعور منه.

وقد عرف الجميع في هذا المشاغب شخص المواطن بياتيجوروف ذي الحسب والنسب، ورجل الصناعة المحلي صاحب الملايين،

المشهور بالعربدة وفعل الخير، وعلى وجه الخصوص باحترامه التام لحسن التربية كما تقول الصحف المحلية دون انقطاع.

وبعد فترة صمت قصيرة، تساءل بياتيجوروف قائلاً:

- حسن جدًّا أتنصرفون الآن؟! فتسلل رجال الفكر من قاعة القراءة دون أن ينبسوا بكلمة واحدة، وأغلق بياتيجوروف الباب من خلفهم، وبعد هُنيهة نظر بيفسترات إلى الخادم الذي أحضر النبيذ إلى قاعة القراءة، ثم أخذ يهز كتفيه وقال في نغمة خشنة:

- لماذا لم تتكلم؟

فأجابه بقوله:

- أُمرت بألا أتكلم.

ونظر إليه بيفسترات شذراً، ثم قال:

- ألا تتكلم! انتظر، أيها المتشرد، حتى ألقي بك شهراً في الزنزانة، وحينئذٍ ستعرف معنى: ألا تتكلم. اخرج من هنا.

- ثم استمر يقول موجِّهاً كلامه إلى رجال الفكر:

- وأنتم أيها السادة، يا لكم من مجموعة لطيفة لا تعرف إلا إثارة الشَّغب! ألم يكن في وسعكم أن تغادروا القاعة لمدة عشر دقائق،

أنتم الذين أحدثتم هذه الضجة. وأنتم الذين أطلقتم حناجركم بالصراخ للخلاص منها. آه، أيها السادة. إني أبغض تصرفاتكم.. الله يشهد أني أبغضها..

وراح رجال الفكر يطوفون في أركن النادي كالمنبوذين البؤساء الذين يكفرون عن جريمة ارتكبوها، وكل واحد منهم يوسوس في آذن الآخر كأنهم أناس يشعرون بكارثة توشك أن تنقض على رءوسهم. ولما ترامى إلى أسماع زوجاتهم وبناتهم أن بياتيجوروف قد شُتم وأُهين، خيم عليهن الهدوء وبدأن في الانطلاق إلى منازلهن وانتهى الرقص.

وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل خرج بياتيجوروف من قاعة القراءة وهو لا يعي شيئاً من شدة السكر. واتجه إلى قاعة الرقص حيث جلس بجانب الفرقة الموسيقية وبدأ يغني على صوت الموسيقى، ثم لم يلبث أن انبطح على وجهه في كآبة وراح يغط في النوم.

وصاح منظمو الحفلة برجال الموسيقى أن يكفوا عن العزف وهم يقولون:

- هس.. إن بيجور تيلتش نائم.

وانحنى بليبوخين على رأس صاحب الملايين، وأصر في أذنه:

- أتريد أن أصحبك إلى البيت يا بيجورنيلتش؟!

ومط بيجور شفتيه كأنه يحاول طرد ذبابة وقفت على خده. فأعاد بلييبوخين سؤاله:

- أتريد أن أصحبك إلى البيت؟ أم أخبرهم أن يحضروا العربة حتى هنا.

وأجاب بيجور:

- هه؟ ماذا؟ هاها! أهو أنت؟ ماذا تريد؟

- أريد أن أصحبك إلى البيت.. لقد آن الأوان للذهاب مع كل سلامة.

- البيت.. أريد أن أذهب إلى البيت.. خذني إلى البيت.

فأشرق وجه بلييبوخين من فرط الرضا، وساعد بيجور بياتيجوروف على النهوض على قدميه، وأقبل رجال الفكر الآخرون مسرعين مستبشرين واشتركوا جميعاً في رفع المواطن صاحب الحسب والنسب والمقام الرفيع على قدميه، وحملوه إلى عربته بكل عناية!!

وكان زستياكوف يطفح بالبشر وهو يساعد المليونير على الصعود إلى عربته، ولم يكد يراه يستقر في مكانه حتى أخذ يهذي ويقول:

- لا يستطيع أن يقوم بكل ما قمت به إلا فنان كبير أو عبقري

عظيم. الواقع أنني كالمذهول من شدةالمتعة يا بيجورنيلتش ولم أستطع حتى الآن أن أمنع نفسي من الضحك.. ها ها.. لقد ثملنا جميعاً من فرط السرور!.. ها ها.. صدقني إني لم أنل هذا القسط من الضحك في أي مسرح.. أما عمق الفكاهة.. فحدّث ولا حرج لن أنسى هذه السهرة الخالدة ما حييت.

- وأحس رجال الفكر بالسرور والعزاء يغمران نفوسهم، وهم ينظرون إلى عربة بيجور تسير في طريقها إلى منزله.

وقال زستياكوف وهو يكاد يطير من السرور:

- لقد صافحني. فكل شيء إذن على ما يرام. وأعتقد أنه قد زال عنه الغضب.

فرد عليه بيفسترات في تحسر وقال:

- لنأمل ذلك، إنه سيء المعشر، لئيم الطبع، ولكن فضله كبير علينا. وأرجو أن يكون هذا الدرس قد علمكم أن تأخذوا دائماً جانب الحذر!!

III

الألم

كان جريجوري بتروف الخرّاط رجلاً ذائع الصيت بالنسبة لأمرين اثنين، ذلك أنه كان صانعاً ممتازاً، وأنه كان أكبر سِكِّيرٍ في إقليم خليشنو بأسره وغير جدير بفعل الخير.

وفي ذات يوم حمل زوجته المريضة إلى مستشفى المجلس الإقليمي. وكان عليه أن يسير بعربته ثلاثين فرسخاً في طريق مرعب لم يكن في مقدور ساعي البريد نفسه أن يتغلب عليه إلا بشق النفس. فما بالك بشخص كسول من طراز جريجوري الخراط؟ وكانت تهب ريحٌ صَرْصَرٌ عاتية تسفع الوجوه. والثلج ينهمر كتلاً كأنها السحب حتى لم يكن من اليسير للمرء أن يعرف ما إذا كان الثلج ينزل من السماء أم يصعد من الأرض. والحقول وأعمدة التلغراف والغابات لا يستطاع رؤيتها بسبب الثلج، ومن حين لحين كانت تنقض على جريجوري عاصفة تمتاز بنصيب خاص من العنف، فتخفى عن بصره كل شيء حتى قوس قزح. وكان الفرس العجوز الضعيف يتقدم أمامه بخُطَى السلحفاة ويستجمع كل ما أوتي من جهد، ويدفع برأسه إلى الأمام لكي ينتزع قدمه من الثلج المتراكم في الوقت المناسب..

وكان الخرّاط مستعجلاً، فكان لا يني عن القفز فوق مقعده وينهال

بسوطه من حين لحين على ظهر الحصان.

وأخيراً التفت إلى زوجته وقال:

- لا تصيحي يا متريونا، حاولي أن تتجلدي فلن نلبث أن نصل إلى المستشفى بمشيئة الله، وهناك سيفحصونك في طرفة عين. وسيعطيك «بافل إيفانتش» بعض النقط أو يأمرهم بفصدك، وربما اكتفى بدلك جسمك ببعض الكحول فإن ذلك جدير بانتزاع الآلام من جنبك، كما تعلمين. إن بافل ايفانتش سيفعل كل ما بوسعه.. نعم. إنه سيصيح ويضرب الأرض بقدميه، ولكنه بعد ذلك سيبذل كل ما في مقدوره أن يبذله.. إنه سيد رقيق عامر القلب الحنان. بارك الله فيه.. سيخرج من منزله مهرولاً بمجرد وصولنا ويأخذ في السب واللعن، ويقول بأعلى صوته: ما هذا؟ لماذا لم تحضروا في وقت مبكر؟ أتظنون أنني كلب، حتى أضطر إلى قضاء اليوم كله في العناية بكم، أيها الشياطين؟ لماذا لم تأتوا في الصباح؟ اخرجوا وارجعوا غداً! وسأرد عليه قائلاً: يا سيدي الدكتور بافل ايفانتش! يا صاحب الشرف!

وسيجيبني بقوله: انصرف، أيها الشيطان، انصرف!.

وأهوى الخراط بسوطه على ظهر الجواد واستمر يهيم في طريقه دون أن ينظر إلى زوجته ويتمتم: يا صاحب الشرف! الله شهيد على ما أقول. أقسم بكل عظيم أني غادرت منزلي في الصباح الباكر. ولكن كيف كان يتأتى لي أن أصل في الوقت المناسب، إذا

كان المولى قد أرسل علينا في ثورة غضبه مثل هذه العاصفة؟ أنت تستطيع أن ترى بنفسك أن جواداً أصيلاً لا يستطيع أن يفعل ذلك.. أما جصاني!.. انظر إليه!. إنه ليس حصاناً، بل مسخ حصان. وحينئذ سيقطب بافل إيفانتش ما بين حاجبيه ويصيح: أنا أعرفك جيداً، إنك لم تعدم قط أن تجد لنفسك عذراً! وخصوصاً أنت يا جريجوري! أنا أعرفك جيداً واعتقد أنك توقفت عند الحانات خمس مرات في الطريق على الأقل. وسأقول له: هل أنا حيوان لا قلب له؟ هل أنا كافر؟ أتكون زوجتي العجوز على وشك أن تلفظ أنفاسها، على حافةالموت، وتراني أدور على الحانات. كيف تستطيع أن تقول ذلك؟ فلتذهب الحانات إلى الجحيم. وفي هذه اللحظة سيأمر بافل إيفاتنتش بأن يحملوك إلى المستشفي. أما أنا فسأركع أمامه وأقول: يا بافل إيفانتش: يا صاحب الشرف. إننا نشكرك بكل خشوع. سامحنا، نحن معاشر الحمقى والآثمين. لا تقس علينا في الحكم. فلسنا إلا فلاحين!

إننا نستحق الركل والطرد. وها أنت ذا تخرج في الثلج للقائنا. وسينظر بافل إيفانتش كما لو كان يستعد لضربي ويقول: بدلاً من أن تركع بين قدمي، يجدر بك أن تكف عن عب الفودكا، أيها الأحمق، وكن رحيماً بامرأتك العجوز. إنك تستحق الضرب بالسياط.

نعم الضرب بالسياط يا بافل إيفانتش.. الله يعلم أننا نستحق الضرب بالسياط. ولكن كيف يمكننا منع أنفسنا من الركوع تحت قدميك والانحناء أمامك. وأنت رب نعمتنا ووالدنا؟ يا صاحب الشرف! إنه

عين الحق هذا الذي أقوله أمام الله. وابصق في وجهي إذا حنثت فيه بمجرد أن تتحسن صحة حبيبتي منزيونا، بمجرد أن تعود إلى ما كانت عليه من قبل.

سأصنع لك أي شيء تتفضل بالأمر به. صندوق سجائر من خشب السندر المموج إذا شئت، أو مجموعة من الكرات، أو اسطوانات اللعب الخشبية التي لا تقل في جودتها عما يستورد من الخارج.. سأصنع لك أي شيء.. ولن آخذ منك كوبيكا واحداً. فإنك لو ذهبت إلى موسكو لطلبوا منك أربعة روبلات في صندوق سجائر من هذا القبيل، أما أنا فلن أتقاضى منك كوبيكا واحداً. وسيضحك الدكتور ويقول: حسن جدًّا.. حسن جدًّا! انتهى الأمر، ولو أنه من المؤسف حقًّا أن تكون سكيراً إلى هذا الحد.» إني أعرف جيداً كيف أكلم هذه الطبقة من البرجوازيين، أيتها المرأة العجوز. آه لو أن الله ساعدنا فقط على ألا نضل طريقنا! يا لها من عاصفة! إني لا أكاد أرى من الثلج.

واستمر الخراط في تمتمته دون انقطاع، تاركاً لسانه يدور بصورة آلية، لكي يكبت مصاعبه. ولكن بالرغم من أن رأسه كان مشحوناً بالكلمات التي يستطيع التصرف فيها كما يشاء. فإن الأفكار والأمور التي يموج بها هذا الرأس كانت أكثر منها عدداً. وذلك أن الحزن كان قد استولى على الخراط على حين غفلة منه، كان قد انقضَّ عليه كالصاعقة، فغاضت فطنته، وأصبح عاجزاً عن الرجوع إلى حالته الطبيعية، عاجزاً عن كل تفكير.

والواقع أنه قد عاش حتى الآن حياة لا تدرك معنى المسؤولية، عاش في نوع من بلادة السكارى التي لا تعرف الحزن أو الفرح. وفجأة شعر بألم مروع ينخر قلبه.

على غرة منه وجد هذا السكير الكسول الخفيف القلب نفسه في موقف الرجل المشغول المهموم، الرجل المستعجل الذي أوقعته الظروف في صراع مع الطبيعة ذاتها.

ويذكر الخراط أن الحزن بدأ يستولى عليه في مساء اليوم السابق، فحينما رجع إلى بيته في مساء ذلك اليوم ثملاً كعادته، وبدأ يسب ويلعن ويلّوح بقبضة يده كعادته أيضاً، نظرت الزوجة إلى جلادها نظرة لم تعهد لديها من قبل. كانت النظرة العادية التي تنبعث من عينيها الهرمتين تعبر عن الذلَّة والألم والعذاب، كنظرة الكلب الذي يُضرب كثيراً ويطعم قليلاً. أما الآن فعيناها قاسيتان ثابتتان كأعين القديسين في الصور الزيتية أو الأشخاص المحتضرين. وقد بدأ حزن الخراط حين رأى هاتين العينين الغريبتين المضطربتين، فذهب في ارتياع إلى أحد جيرانه واستعار منه حصاناً، وها هو الآن يحمل زوجته إلى المستشفى، وكل أمله أن يستطيع بافل ايفانتش بمساحيقه وترياقه أن يعيد إلى عيني المرأة العجوز نظراتها المألوفة.

وتمتم يقول لزوجته: لا تنسي يا متريونا، إذا سألك بافل إيفانتش عما إذا كنت أضربك أن تقولي: أوه، كلا يا سيدي!. ولن أضربك منذ اليوم. أقسم لك بكل شيء مقدس إني لم أقصد إيذاءك قط حينما

كنت أضربك. وإنما كنت أضربك فقط لأني لا أجد شيئاً أفعله خيراً من ذلك. إني أحبك حقًّا، ولو كان غيري في مكاني لما عبأ بالأمر، ولكن هأنذا أحملك إلى المستشفى.. وأفعل كل ما في مقدوري في مثل هذه العاصفة. آه! لتكن مشيئتك عوناً لنا، يا مولاي! فقط لو ساعدنا الله على ألا نضل طريقنا! كيف حال جنبك الآن يا متريونا؟ لماذا لا تقولي شيئاً؟ إني أسألك عما إذا كان جنبك يؤلمك؟

ورأى من الغريب أن الثلج لا يذوب على وجه المرأة العجوز، من الغريب أن وجهها نفسه يبدو كأنه قد استطال واتخذ لون التراب الأشهب أو الشمع المتجمد وأصبحت نظراته على هذه الدرجة من القسوة والجمود.

وتمتم الخراط يسألها: أيته العجوز البلهاء! أسألك بكل حسن نية وأمام الله، وأنت.. أيتها العجوز البلهاء! ألست أصحبك إلى بافل إيفانتش حيث هنالك..

وترك الخراط عنان الحصان يسترخِي بين يديه واستسلم لأفكاره، ولم يعد في مقدوره الالتفات والنظر إلى المرأة العجوز، من شدة الرعب، كما أن الاستمرار في إلقاء الأسئلة دون أن يتلقى عنها أي جواب كان يخيفه أيضاً. وأخيراً أراد أن يضع حدًّا لهذا القلق فتحسس يدها الباردة، ولما تركها من يده شعر بأنها تسقط كالحجر. فقال: إنها ميتة! آه يا أنا! آه يا أنا.

وانفجر الخراط بالبكاء.. وكان هذا الذي شعر به أقرب إلى الضيق منه إلى الحزن. وراح يقول في نفسه: ما أسرع ما تتوالي الأحداث في هذا العالم. إذ لم يكد يبدأ حزنه حتى انتهى الآن كل شيء. لم يكد يحيا مع زوجته العجوز ويكلمها من قلبه ويشعر بإعزازه لها، حتى كانت قد ماتت.

لقد عاش معها أربعين عاماً، وقد مرت هذه الأعوام الأربعون فيما يشبه الضباب. مرت الحياة بين الشراب والنزاع والحاجة دون شعور بها تقريباً. وماتت المرأة العجوز في نفس اللحظة التي شعر فيها بأنه يحبها وأنه لا يستطيع العيش بدونها، وأنه أخطأ في حقها أفدح الخطأ.

وبدأ يرجع بذاكرته نحو الماضي ويقول: كانت تذهب للتسول، كنت أرسلها تتسول الخبز، كنت أفعل ذلك! آه يا أنا، آه يا أنا!

لقد كان من الممكن أن تعيش عشر سنين أخرى، تلك البلهاء المسكينة! أما الآن فإنها تظن أني حقيقة على هذا النحو الذي عرفته. إلى أين أنا ذاهب يا سيدتي العذراء؟ إنها الآن في حاجة إلى الدفن. لا إلى دكتور! هيا! هيا!

وأدار الخراط رأس الحصان وانهال على ظهره ضرباً بالسوط بكل ما أوتي من قوة.. وكانت حالة الطريق لا تزداد إلا سوءاً. فأصبح الرجل الآن لا يرى قوس قزح مطلقاً. وصارت العربة تصطدم من حين لآخر بشجيرة من شجرات الصنوبر، ثم حدث أن

احتك شيء ما داكن بيد الخراط فخدشها، وانفجر برق خاطف أمام عينيه، وفجأة أصبح لا يستطيع أن يرى إلا دوَّامة من البياض تدور أمامه.

وراح الخراط يقول في نفسه: آه لو استطاع الإنسان أن يبدأ حياته من جديد.. وتذكر أن متريونا. كانت منذ أربعين عاماً شابة جميلة مرحة، وأنها تنتسب إلى بيت ميسور الحال. وأن أهلها زوجوها منه بسبب مهارته. وقد وفروا لها كل ما يضمن لهما حياة سعيدة.

ولكن لم يكد تنتهي مراسيم الزواج حتى ألقى الزوج بنفسه إلى جانب الموقد، وهو ثمل لا يعي شيئاً، ثم بدا عليه أنه لا يستطيع الاستيقاظ من رقدته بصورة طبيعية. نعم لقد تذكر الزواج. أما حياته بعد الزواج فإنه لم يستطع أن يتذكر منها شيئاً سوى الشراب والنوم والشجار. وهكذا ضاعت هذه السنون الأربعون بدون أية جدوى.

وبدأت سحب الدوامات الثلجية البيضاء تتحول إلى اللون الأشهب بالتدريج. فقد بدأ الليل يرخي سدوله.

وأخذ الخراط يتساءل من جديد: إلى أين أنا ذاهب؟ يجب عليَّ أن أدفنها، ولكني مازلت سائراً في طريق المستشفى. لابد أن أكون فقدت عقلي!

وعاد يدير رأس الحصان، وينهال عليه بالضرب من جديد.

فاستجمع الحصان كل قواه وأخذ يغط غطيطاً عالياً، ثم انطلق يسير خبباً. وواصل الخراط إلهابه بالسوط. وسمع صوت اصطدام في مكان ما خلفه، وعلم دون أن يلتفت وراءه أن رأس الجثة يصطدم بجانب العربة. وكان الليل يزداد ظلاماً والريح تزداد برودة وعنفاً.

وعاد الخراط يقول لنفسه من جديد: لو بدأت الحياة من جديد إذن لاقتنيت أدوات جديدة وقمت بما يوكل إليَّ من أعمال.. وأعطيتها النقود.

وعندئذٍ انفلت عنان الحصان من يده، وأخذ يبحث عنه ويحاول التقاطه، ولكن عبثاً، لأن يديه لم تقويا عليّ الحركة. فقال في نفسه: لا بأس، فإن الحصان سيذهب من تلقاء نفسه لأنه يعرف الطريق.. ولو أتيح لي الآن أن أنام قليلاً، لأخذت قسطاً من الراحة حتى يحين وقت الجنازة وإقامة طقوس الدفن.

وأغمض الخراط عينيه وراح فيما يشبه النعاس الخفيف. وبعد ذلك بقليل سمع الحصان يتوقف عن المسير، ففتح عينيه حيث وجد نفسه أمام شيء معتم يشبه أن يكون كوخاً أو سياجاً.

وأدرك من فوره أنه يتحتم عليه أن ينزل من العربة ويكتشف المكان الذي هو فيه، ولكن أطرافه كانت في حالة من التخدير لا تسمح له بأية حركة، حتى ولو كانت من أجل وقاية نفسه من التجمد المؤدي إلى الموت فاستسلم للنوم في سلام.

واستيقظ ليجد نفسه في قاعة فسيحة حوائطها مطلية بالجير الأبيض، وكانت الشمس المضيئة تتدفق من خلال الشباك. فاستطاع أن يرى في الغرفة بعضَ الناس، وكانت أول فكرة طرأت بذهنه أن يظهر أمام الحاضرين بمظهر العارف الوقور فقال:

- لابد لنا من إقامة صلاة الموتى على روح السيدة العجوز، يجب أن نخبر القسيس.

فقاطعه أحدهم قائلاً:

- حسن جدًّا! حسن جدًّا! ما عليك إلا أن تظلَّ ساكناً.

وصاح الخراط مندهشاً، وقد وقع بصره فجأة على الدكتور:

- ما هذا، إنه بافل ايفانتش: يا صاحب الشرف! أيها المحسن!.

وحاول أن يقفز من مكانه ليركع أمام العلم الطبي، ولكنَّ ذراعيه وساقيه لم تطاوعه، فصاح متسائلاً:

- يا صاحب الشرف! أين قدماي؟ أين يداي؟!

ورد عليه الدكتو بقوله:

- قل ليديك وساقيك مع السلامة. فقد تجمدت. هيا، هيا! علام

تصيح؟ لقد عشتَ حياتك، فاحمد الله على ذلك!! لا أظن إلا أنك قد جاوزت الستين من عمرك، وقد قضيت نصيبك من الحياة.

وأجاب الخراط:

- يا للألم! يا للألم!، يا صاحب الشرف! آه لو أني استطعت فقط أن أعيش ست سنوات أخرى!

فرد عليه الطبيب:

- وما الداعي إلى ذلك؟

فقال:

- لم يكن الحصان حصاني، وعليّ أن أرده لصاحبه. وعليَّ أن أدفن المرأة العجوز. أوه، ما أسرع ما ينقضي كل شيء في هذا العالم! يا صاحب الشرف، يا سيد بافل إيفانتش! صندوق سجائر من خشب السندر المموَّج! سأصنع لك واحداً، وأصنع أيضاً مجموعة من الكرات الخشبية.

- وغادر الطبيب الغرفة وهو يلوِّح بإشارة صدود من يده. وانتهى كل شيء بالنسبة للخراط.

III

الضدان

بعد الساعة التاسعة بقليل، وفي ليلة مظلمة من ليالي شهر سبتمبر، مات أندريه البالغ من العمر ست سنوات بمرض الدفتيريا، وهو الابن الوحيد للدكتور كيريلوف طبيب المجلس الإقليمي. ولم تكد زوجة الدكتور تجثو على ركبتيها بجانب فراش الصبي وهي تحت تأثير الصدمة الأولى، صدمة الهول اليائس الذي يستولى عليها، حتى سُمع جرس الباب الخارجي يردد رنيناً متتابعاً.

ولما كان الخدم قد سُرِّحوا من المنزل منذ الصباح بسبب الدفتيريا، فقد ذهب كيريلوف نفسه ليفتح الباب، وهو في الحالة التي هو عليها بالقميص والصديري المفكوك الأزرار، وحتى دون أن يجفف وجهه المبلل ويديه المصبوغتين بحامض الفنيك. وكان الظلام يخيم على ردهة البيت، فلم يستطع الدكتور أن يميز من الطارق الداخل إلا طوله الذي كان في حدود المتوسط، وإلا كوفيته البيضاء ووجهه العريض الشاحب الذي يبدو لشدة شحوبه كأنه يضيء الردهة..

وسارع الرجل بالسؤال:

- هل الدكتور هنا؟

ورد عليه كيريلوف بقوله:

- نعم أنا هنا.. ماذا تريد؟

فقال الرجل في نغعمة من نجا من خطر محدق:

- أوه كم أنا سعيد بلقائك.

وأخذ يتحسس يد الدكتور حتى وجدها، وراح يضغط عليها بين يديه بحنان. ثم استمر يقول:

- إني سعيد جدًّا.. سعيد جدًّا! لقد سبق لنا أن التقينا من قبل. إن اسمي ايوجين. وقد سعدت بمقابلتك في الصيف لدَى آل جروتشيف.. أنا سعيد جدًّا للعثور عليك هنا، فتعال معي فوراً، أتوسل إليك.. إن زوجتي مريضة وفي خطر، ومعي عربتي هنا.

وكان صوت الوافد وحركاته تدل على أنه في حالة اضطراب شديد. إذ كان مبهور الأنفاس يتكلم بصوت سريع متهدج كأنه نجا من فوره من حريق أو من كلب مسعور، ويعبر عن نفسه بلا أي تكلف يشبه سذاجة الأطفال، كان ينطق بجمل قصيرة متقطعة شأن الأشخاص المرتاعين الذين قهرهم الخوف.. ويتلفظ ألفاظاً غريبة لا صلة لها بالموضوع الذي جاء من أجله.

وواصل كلامه قائلاً:

- كنت أخشى ألا أجدك في البيت، فلم يفارقني الضيق والقلق طول الطريق.. البس سترتك وتعال، ابتغاء مرضاة الله.. لقد بدأ الأمر هكذا: جاء يابنبشفسكي لزيارتي. اسكندر يابنشفسكي الذي تعرفه. فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث برهة من الزمن، ثم انتقلنا إلى المائدة وتناولنا الشاي. وفجأة صاحت زوجتي بأعلى صوتها ووضعت يدها فوق قلبها، ثم سقطت على كرسيها فحملناها إلى فراشها و... ودلكت لها صدغيها بمحلول النوشادر ورششت على وجهها بعض الماء..

ولكنها هناك ترقد كالميتة.. وأخشى ما أخشاه أن يكون الأمر راجع إلى انسداد في الشريان. تعال.. لقد مات والدها بانسداد في الشريان. وأصغى إليه كيريلوف في صمت تام كما لو كان لا يفهم الروسية.

- وحين عاد أبوجين إلى ذكر يابنشفسكي ووالد زوجته وشرع من جديد يبحث عن يد كيريلوف في الظلام، أمال هذا الأخير رأسه نحو الوراء، وقال دون اكتراث:

- آسف، لا أستطيع الذهاب إلى بيتك. فقد مات ابني منذ خمس.. خمس دقائق..

فتقهقر أبوجين خطوة إلى الوراد، ثم قال هامساً:

- حقًّا، يا إلهي! ما أحرج اللحظة التي اخترتها! وما أشأم هذا

اليوم! إنه يوم منحوس حقًّا، وإنها لمصادفة غريبة.. من كان يظن ذلك؟!

وأمسك بمقبض الباب وأحنى رأسه كما لو كان قد غرق في تفكير عميق، والواقع أنه كان متردداً فيما إذا كان يجب عليه أن يذهب أو يواصل تضرعاته.

وأخيراً مد يده فأمسك بكم قميص كيريلوف، ثم قال بتأثر شديد:

- اصغ إليَّ! إني أفهم موقفك تمام الفهم. والله يعلم أني خجل، إذ أراني أحاول إزعاجك في هذه اللحظة. ولكن ماذا في وسعي أن أفعل؟ هيا ابتغاء مرضاة الله!

فأنا لا أسألك من أجل نفسي. ولست أنا المريض.

وتبع ذلك فترة من الصمت. بعدها أدار كيريلوف ظهره لايوجين، واستمر في هذا الوضع دقيقة أو دقيقتين. ثم خرج متباطئاً من الردهة إلى قاعة الجلوس. كان يمشي مشية المتردد، وبطريقة آلية، ويبدو عليه الذهول إلى حد أنه راح يعبث بغطاء المصباح المطفأ، ويحملق في أحد الكتب الموضوعة فوق المنضدة مما يشير إلى أنه كان في هذه اللحظة خلوًّا من كل مقصد ومن كل رغبة، وأنه لم يكن يفكر في أي شيء. بل لعله نسي نسياناً تامًّا أن هناك رجلاً غريباً ينتظره في الردهة. وكان من شأن الظلام والسكون المخيمين على القاعة أن يزيداه بلادة وذهولاً.

وبعد ذلك غادر غرفة الجلوس، وذهب إلى مكتبه، فكان يرفع قدمه اليمنى إلى أعلى مما ينبغي، ويتحسس إطار الباب بيديه، بينما يعبر كل وجهه عن نوع من الشرود كما لو كان قد وجد نفسه فجأة في بيت غريب، أو شرب حتى ثمل لأول مرة في حياته، ثم استسلم شارد الذهن، لهذا الإحساس الجديد. وكان هناك خط عريض من النور ينطبع على أحد حوائط المكتب وعلى رفوف الكتب. هذا النور ومعه رائحة الفينيك والحادة كان آتياً من الباب الموصل إلى غرفة النوم الذي كان مواراباً.. ألقى الدكتور بجسمه على كرسي بجانب المكتب، وظل لحظة يحملق في الكتب التي أضاءها خط النور، ثم لم يلبث أن نهض من جديد وذهب إلى غرفة النوم. وكان يسود غرفة النوم جو رهيب من سكون الموت.

كان أتفه شيء فيها يدل أبلغ دلالة على العاصفة التي انفجرت هنا منذ قليل، ثم حل محلها الآن نوع من التعب. فكل شيء هنا في حالة سكون.

وكان يضيء الغرفة بأسرها شمعدان موضوع على حامل في وسطها وتحيط به أكوام من القارورات والصناديق والآنية المختلفة، ثم مصباح آخر كبير قائم على دولاب الملابس ذي الأدراج. وعلى فراش موضوع تحت الشباك مباشرة اضطجع غلام صغير مفتوح العينين، يعبر وجهه عن نوع غريب من الدهشة. لم يكن يبدو على الغلام أي حراك، ولكن كان يبدو أن عينيه تزدادان ظلاماً بالتدريج وتغوران في داخل جمجمته شيئاً فشيئاً. أما الأم فكانت جاثية بجانب فراشه ووجهها مدفون في

ملاءة الفراش ويداها موضوعتان على جثة الغلام. وكانت هي الأخرى كالغلام تبدو عديمة الحركة، ولكن ما أعظم ما كان يبدو في خطوط جسمها وذراعيها من حركة كامنة، فقد ضغطت على الفراش بكل كيانها وبقوة وحرص بالغين إلى أقصى حد، كما لو كانت تخشى تكدير الوضع الساكن المريح الذي اهتدى إليه جسمها المنهوك في نهاية الأمر. وكان السكون والسلام يخيمان على كل ما في الغرفة من أغطية وقصاصات نسيج وأحواض وماء يقف راكداً كماء المستنقعات فوق أرض الغرفة وزجاجات من عصير الليمون وفرش وملاعق متناثرة هنا وهناك، بل وعلى الهواء نفسه بقوامه الثقيل الراكد.

وقف الدكتور بجانب زوجته وهو يضع يديه في جيوب سرواله، ومال برأسه جانباً، وثبت نظره على ولده. وكان وجهه يعبر عن عدم الاكتراث لولا أن قطرات الدمع المعلقة بشعر لحيته كانت تدل على أنه كان يبكي منذ قليل.

كانت غرفة النوم تخلو من ذلك الجو المنفّر الرهيب الذي يرتبط بفكرة الموت. بل إن حالة الشلل السائدة في الغرفة ووضع الأم بجانب فراش ولدها وعدم الاكتراث المطبوع على ملامح الأب، كل ذلك كان ينطوي على ما يشبه الجاذبية، على شيء من التأثير المريح، على ذلك النوع الرقيق الخفي من جمال الحزن البشري الذي لا يستطيع الناس أن يفهموه بسرعة ويسر، فضلاً عن أن يصفوه، ذلك الجمال الذي لعل الموسيقى وحدها هي التي تستطيع التعبير عنه للآخرين. نعم لقد كان هناك جمال في ذلك السكون

المعتم. ولم يكن كيريلوف وزوجته يتكلمان أو يبكيان، كما لو كانا يشعران بشاعرية موقفهما إلى جانب اضطلاعهما بحمل حزنهما الثقيل. وهما إذا كانا يعرفان أن شبابهما قد ولَّى، فقد كانا أيضاً على بينة من أن حقهما في إنجاب الأطفال قد سقط إلى الأبد.

فالدكتور الذي لم يتجاوز الرابعة والأربعين من عمره، كان أشيب الشعر، ويبدو في مظهر الرجل الهرم. أما زوجته الرقيقة الذابلة فكانت في الخامسة والثلاثين من عمرها. وعلى هذا النحو لم يكن أندريه ولدهما الوحيد وحسب، بل كان أيضاً ولدهما الأخير.

وكان الدكتور على عكس زوجته، من أولئك الأشخاص الذين يشعرون بالحاجة إلى العمل في لحظات الألم النفسي. فبعد أن وقف بجانب زوجته بضع دقائق غادر غرفة النوم وهو لا يزال يرفع قدمه اليمنى إلى أعلى مما ينبغي.. وذهب إلى حجرة صغيرة بها أريكة عريضة تحتل منها نحو نصفها. ومنها انتقل إلى المطبخ حيث أخذ يدور على غير هدًى حول الموقد، ثم طأطأ رأسه وخرج من باب منخفض إلى الردهة.

وهناك وجد نفسه من جديد وجهاً لوجه أمام الكوفية البيضاء والوجه الشاحب.

فتنفس أبوجين الصعداء، وهو يضع يده على مقبض الباب، وقال:

- وأخيراً!.. هيا من فضلك.

وعندئذ انتفض الدكتور وحملق فيه بعينيه، وتذكر.. ثم قال، وقد عاد فجأة إلى الحياة:

- ولكني قلت لك إني لا أستطيع.. إن هذا لجد غريب!..

ورد عليه أبوجين في نغمات متضرعة، وهو يضع يده على كوفيته:

- أنا لست تمثالاً، يا دكتور، وأفهم موقفك تمام الفهم، وأشعر بشعورك! ولكني لا لا أسألك من أجل نفسي. إن زوجتي تحتضر، ولو سمعت صراخها ورأيت وجهها لفهمت لماذا أثقل عليك، يا إلهي لقد ظننت أنك ذهبت لارتداء ملابسك! إن الوقت قيم يا دكتور فتعال أرجوك.

وقال الدكتور وهو يضغط على كلماته مقطعاً مقطعاً ويخطو داخلاً إلى قاعة الجلوس:

- لا أستطيع أن أذهب معك.

فتبعه أبوجين وأمسك بكم قميصه قائلاً:

- إنك في حالة اضطراب شديد. وأنا أفهم موقفك تماماً، ولكني لا أسألك المجيء لعلاج ألم في الأسنان أو لمجرد القيام بتشخيص، بل لإنقاذ حياة بشرية.

ثم استمر يقول في صوت ضارع:

- إن هذه الحياة تسمر على كل حزن شخصي. هيا بنا الآن. أرجوك أن تظهر شيئاً من الشجاعة، بل من البطولة، باسم الإنسانية! فأجاب كيريلوف بصوت حزين:

- الإنسانية. إنها سلاح ذو حدين، فأسألك باسم هذه الإنسانية نفسها، ألا تنتزعني من هنا. إن هذا لغريب حقًّا! فأنت ترى أني لا أستطيع الوقوف على قدمي. ثم تحاول التلويح في وجهي بكلمة: «الإنسانية». أنا الآن لا أصلح لشيء.. ولا شيء يستطيع إغرائى على الذهاب معك، هذا إلى أنه لا يوجد من أتركه بجانب زوجتي، كلاَّ، كلاَّ..

وتقهقر كيريلوف خطوة إلى الوراء، وهو يمنع أبوجين من الاقتراب منه بكلتا يديه، ثم استمر يقول، وقد انتابه رعب مفاجئ:

- من فضلك، لا تكرر على السؤال، أرجوك أن تعفيني.. نعم إن المجلد الثالث عشر من دستور الأطباء يضطرني إلى الذهاب معك، وفي وسعك أن تجرني وراءك من ياقة حلتي.. حسن جدًّا، افعل هذا.. فأنا لا أصلح لشيء.. بل لست في حالة أستطيع معها الكلام.. اعفني.

قال أبوجين، وقد أمسك من جديد بكم قميص كيريلوف:

- ليس عليك أن تستعمل معي هذه النغمة، يا دكتور. ما شأني أنا

بالمجلد الثالث عشر؟ لا حق لي بأية حال أن اضطرك رغم إرادتك. إذا كنت ستأتي معي، فهيا، وإلا فلا حيلة لي. أنا لا ألجأ إلى رغبتك، بل إلى قلبك. فهناك سيدة تحتضر. وها أنت ذا تقول إن ابنك قد مات منذ هنيهة. فأنت إذن أقدر الناس على فهم الكرب الذي أنا فيه!

كان صوت أبوجين يرتجف من شدة الاضطراب.. وكان في اضطراب صوته ونغماته من قوة الإقناع أكثر مما في كلماته. فقد كان أبوجين صادقاً، ولكن كان من الواضح أن كلماته تتسم بالقسوة والجفاف وتصطبغ بالطنين الذي لا مبرر له وتقرع الآذان. وكأنها تجديف في حق الجو الذي يسود مسكن الدكتور والسيدة التي تحتضر في مكان ما بعيد عن هذا المسكن. وكان هو نفسه يشعر بذلك، ويخشى أن يخطئ الدكتور فهمه، فيحاول أن يخلع على صوته من الحنان والضراعة ما يجعله ينفذ إلى قلبه، إن لم يكن ذلك عن طريق الكلمات، فليكن عن طريق صدق نبراته. ولا شك أنه من المقرر أن الكلمات مهما كانت جميلة عميقة لا تؤثر إلا فيمن هو خالي الذهن، ولكنها لا تكفي دائماً في إقناع من يشعر بالسعادة أو الحزن. وهذا هو السبب في أن أسْمَى تعبير عن السعادة أو الحزن ليس شيئاً آخر غير الصمت في غالب الأحيان. فالعاشقان يفهم كل منهما صاحبه بصورة أفضل حينما يلوذان بالصمت، وأبلغ وأحر الخطب التي تلقى على أحد القبور لا تمس غير الغرباء، وتظل باردة خالية من كل دلالة بالنسبة للأرامل واليتامى.

وقف كيريلوف صامتاً. وحينما انتهى أبوجين من إلقاء بعض الكلمات عن مهنة الطب السامية وإنكار الذات وما أشبه ذلك، سأله الدكتور بنغمة حزينة:

ـ أهذا المكان بعيد؟

فأجاب أبوجين:

ـ على بعد ثلاثة عشر أو أربعة عشر فرسخاً لا أكثر.. وجيادي من النوع الممتاز يا دكتور. فأعدك بشرفي أنها ستحملك إلى هناك وترجعك إلى هنا في ظرف ساعة.

ساعة واحدة فقط!

أثرت هذه الكلمات الأخيرة في الدكتور أكثر مما أثر الاحتجاج بالإنسانية وواجب الطبيب، ففكر قليلاً ثم قال. وهو يتنهد:

ـ حسن! هيا بنا!

وذهب إلى المكتب بخطى واسعة، إذ أنه قد استعاد الآن حيويته، ثم لا يلبث إلا لحظة حتى عاد وقد ارتدى حلته الرسمية. فبدا البشر على أبوجين، وأخذ يسير بجانبه بخطوات قصيرة بطيئة ويساعده على إصلاح ملبسه، ثم خرجا معاً من البيت.

وبينما كان الدكتور يعتدل في مقعده داخل العربة، أخذ أبوجين

يتمتم قائلاً:

- تأكد أني سأعرف كيف أقدر لك هذا الصنيع، وستكون هناك بعد لحظات. هيا يا لوقا. هيا أيها الحوذي الهرم، سر بأسرع ما تستطيع من فضلك!

ولم تكد العربة تواصل سيرها بالطريق، حتى هبت من بين أغصان الأشجار التي تحف بالطريق، جحافل الغربان التي أجفلتها ضوضاء العجلات، وراحت تنوح بصياحها الباكي كما لو كانت تعرف أن ابن الدكتور قد مات وأنا زوجة أبوجين تحتضر.

لم يكد كيريلوف وأبوجين يتبادلان الحديث طول الطريق. ولكن أبوجين فتح فمه مرة ثم قال وهو يتنهد:

- إنه لموقف مؤسف حقًّا. فالإنسان لا يعرف مقدار حبه لمن يمتون إليه بصلة إلا حينما يخشى فقدانهم.

وحينما انحدرت العربة نحو النهر لكي تعبره من إحدى مخاضاته انتفض كيريلوف دفعة واحدة وهب من مقعده، كما لو كان خرير الماء قد أصابه بذعر مفاجِئ، ثم قال بصوت حزين:

- أنصت إليَّ، دعني أذهب، وسأرجع إليك بعد قليل. أريد فقط أن أرسل مساعدي ليكون بجانب زوجتي، إنها وحدها.

لم يرد عليه أبوجين، في حين واصلت العربة طريقها وهي

تتأرجح في سيرها وتصطدم عجلاتها من حين لآخر بأحد الأحجار الناتئة على وجه الرمال. وظل كيريلوف غارقاً في يأسه وحزنه لا يكف عن الحركة، ويدير عينيه فيما حوله. ومن خلف العربة كان يرى الطريق تحت ضوء النجوم الخابي. كما كان يرى أشجار الصفصاف المصطفة على حافة النهر، وهي تتلاشى في جنح الظلام، وعن يمينها كان يمتد السهل منبسطاً شاسعاً شسوع السماء التي تغطيه.

كانت الطبيعة تبدو مشحونة باليأس والمرض. وكانت الأرض كامرأة انفردت بنفسها في قاعة مظلمة وراحت تحاول جهدها ألا تفكر فيما مضى، كانت مثقلة بذكريات الربيع والصيف، وتنتظر في تكاسل تام قدوم الشتاء الذي لا مفر منه. فكان الناظر لا يرى أينما وجه بصره إلا حفرة مظلمة باردة عميقة لا حد لعمقها، وليس أمام كيريلوف أو أبوجين أو الهلال الضارب إلى الحمرة من سبيل للخروج منها.

وكانت العربة كلما اقتربت من هدفها ازداد القلق في نفس أبوجين فكان يتحرك ويقفز من مكانه ويبعث ببصره من فوق أكتاف الحوذي لكي ينظر أمامه. وحينما توقفت العربة أمام المنزل المغطَّى بستار جميل مصنوع من النسيج المخطط، ونظر أبوجين إلى الأضواء المطلة من شبابيك الطابق الثاني، أخذت أنفاسه تضيق وتتلاحق، ثم قال وهو يصحب الدكتور إلى الردهة ويدلك راحتيه بصورة عصبية:

- لو حدث شيء سيء لما استطعت احتمال الصدمة.

ثم أضاف وهو يرهف أذنيه ليسمع:

- ولكن ليس هناك أصوات اضطراب أو هلع. فلا بد أن يكون الأمر خيراً حتى الآن على الأقل.

لم يكن يسمع في الردهة أصوات أو وقع أقدام، وكان يبدو أن البيت كله يغط في نوم عميق بالرغم من الأضواء اللامعة. والآن أصبح في وسع الدكتور وأبوجين أن يرى كل منهما الآخر بوضوح بعد أن قضيا كل وقتهما حتى الآن في ظلام الليل.

أخذ أبوجين يصعد درج السلم وهو يقول:

- لا أحد هنا، ولا صوت، لم يحدث أي مكروه. آمل ذلك.

وصحب الدكتور من خلال الردهة إلى قاعة كبيرة كان يُلمح فيها بيانو ضخم وثريا معلقة بالسقف وملفوفة بغطاء من الحرير الأبيض الفخم. ومن هذه القاعة خرجا إلى قاعة الاستقبال، تلك الغرفة المريحة الفاخرة الغارقة في بحر من الضوء الوردي الخافت.

وهناك قال أبو جين للدكتور:

- تفضل بالجلوس هنا قليلاً حالما أخبرهم أنك موجود.

وبقى كيريلوف وحده في الغرفة. ويبدو أن فخامة الغرفة وجمال الضوء الخافت ووجوده في منزل غريب غير مألوف له، لم يؤثر فيه أي تأثير. فقد جلس على أحد المقاعد وراح يفحص أظافره المصبوغة بحامض الفينيك.

لم يكد يلمح المصباح القرمزي ذا الغطاء ولا تلك الآلة الموسيقية الموضوعة في أحد الأركان. ولكن صوت ساعة الحائط الدقاقة جذب انتباهه فاتجه ببصره إليها، وهنا لمح كلباً ضخماً من النوع الذئبي لا يقل امتلاءً ورغداً عن أبوجين ذاته.

وبعد أن انقضى من الوقت خمس دقائق أو نحو ذلك، كف كيريلوف عن النظر إلى يديه، ورفع بصره نحو الباب الذي خرج منه أبوجين.

كان أبوجين يقف قريباً من الباب، ولكنه كان شخصاً آخر غير ذلك الشخص الذي خرج من الغرفة منذ قليل. فقد زايلته أناقته الرقيقة ومظهر الرغد الذي كان يرفرف عليه. كان مظهر وجهه ويديه وكل هيئته ينبئ بالاشمئزاز من شيء ما ليس مرجعه إلى الرعب أو الألم الجسدي. وكان أنفه وشفتاه وشاربه وكل ملامحه مدلاّة كما لو كانت على وشك السقوط من وجهه. وكانت عيناه تلمعان بشيء من الألم الغريب.

وتقدم إلى وسط غرفة الاستقبال بخطوات واسعة متثاقلة، وهناك انحنى إلى الأمام، وأخذ يزمجر ويحرك قبضتيه ويصرخ قائلاً:

- لقد خدعتني!.. لقد خدعتني!.. تركتني! تصنعت المرض وبعثت بي للبحث عن الطبيب، لا لشيء إلا للفرار مع هذا القرد المسمى يابنشفسكي. يا إلهي!.

ثم تقدم بخطاه الثقيلة إلى حيث يجلس الدكتور، وهو يلوّح بقبضتيه الضخمتين في وجهه ويجأر قائلاً:

- تركتني! خدعتني! لماذا كل هذا؟ يا إلهي! يا إلهي! ما أقذر هذه الجبلة وأحقرها! ما أقذر هذه المناورة الشيطانية الغادرة! أي ضرر وجهته إليها طوال حياتي؟ لقد هجرتني!

وفي هذه الأثناء كانت الدموع تنهمر من عينيه وتسيل مدرارة على خديه. ثم لم يلبث أن أدار ظهره للدكتور وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

ولاحت نظرة استطلاع من الدكتور، فنهض من مكانه ونظر مليًّا إلى أبوجين، ثم سأله:

ولكن أين المريضة؟

فأجاب أبوجين وهو يصرخ ويقهقه ويلوِّح بقبضته في الهواء:

- المريضة! المريضة! إنها ليست مريضة! إنها داعرة ملعونة!

ياللدناءة! يا للقذارة. لا شك أنك قد حكمت بأن الشيطان نفسه لا

يستطيع ابتكار شيء أكثر إثارة للنفوس من هذا. تبعدني من البيت لكي تفر، لكي تفر مع ذلك القرد، ذلك النسناس الغبي المتعفن! أوه يا إلهي! لقد كنت أفضل أن أراها ميتة. لن أستطيع الصمود لهذه الصدمة. لن أستطيع!

واعتدل الدكتور في وقفته وراجت عيناه المغرورقتان بالدموع ترجفان ولحيته الرقيقة تتحرك ذات اليمين وذات الشمال كلما حرّك فكيه. ونظر إلى أبوجين نظرة كلها استطلاع، ثم قال متسائلاً:

- اسمح لي. ما معنَى هذا؟ لقد مات ولدي، وزوجتي وحدها في البيت ترزح تحت أعباء الحزن والأسى.. وأنا نفسي لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمي. إذ أني لم أذق للنوم طعماً منذ ثلاث ليال متواصلة. ثم ماذا أجد؟ لقد غرر بي وسقت إلى هذا المكان لكي أمثل دوراً في إحدى المسرحيات السوقية الرخيصة، لكي أقوم بدور إحدى قطع الأثاث المسرحي.. أنا.. أنا لا أفهم شيئاً.

ففتح أبوجين إحدى قبضتيه، وسقط منها ورقة مكورة. فأخذ يطؤها بقدمه في عنف كما لو كانت حشرة يريد أن يقضي عليها. وراح يحرك قبضته أمام وجهه وهو يقول بعصبية:

- لم ألاحظ شيئاً، لم أفهم شيئاً. لم ألاحظ الطريقة التي كان يأتي بها كل يوم. وأنه اليوم بالذات جاء راكباً عربة. فما الداعي للعربة؟ وأنا الغبي الأعمى لم ألاحظ شيئاً مطلقاً! يا لي من غبي أعمى!

وتمتم الدكتور قائلاً:

- لست أفهم شيئاً. ما معنى كل هذا؟ إن المسألة لا تتعدى أن تكون تمثيلاً بي، مجرد سخرية من آلام إنسان.. إن هذا.. إن هذا أمر مستحيل.. أنا لم أسمع في حياتي بشيء كهذا قط!

قال الدكتور هذا ثم ارتج عليه ولم يعد قادراً على كلام أو عمل. فجعل يهز كتفيه ثم ارتمى على مقعده مادًّا يديه على ركبتيه. وهو لا يصدق شيئاً مما يرى أو يسمع. وقد بدت عليه سيماء شخص بدأ يدرك أنه قد اعتُدى عليه بالإهانة والشتم.

أما أبوجين فقد استمر يصرخ والدمع يتساقط من عينيه:

- إذن لم تعودي تحبينني بل تحبين شخصاً آخر، حسن جدًّا، ولكن لماذا الخداع.. لماذا تلك الحيلة الدنيئة الغادرة؟ ما جدواها؟ وما الهدف منها؟ أي أذى وجهته إليك في حياتي؟

- ثم صرخ في عنف وهو يتقدم من كيريلوف:

- يا دكتور لقد كنت شاهداً غير إرادي لتلك النكبة التي حلت بي، لذلك لن أخفي عنك الحقيقة. أقسم لك أني أحببت هذه المرأة، إني أعبدها، ضحيت في سبيلها بكل شيء. من أجلها قاطعت كل الناس، وأهملت عملي، وهجرت الموسيقى، وغفرت لها أموراً لم أكن لأغفرها لأمي أو أختي.. لم أنظر إليها شذراً قط.. ولم ألومها قط، فلماذا كل هذا الكذب؟ أنا لم أطلب حبًّا.. فلماذا هذه الخديعة

الخسيسة؟ إذا لم تكوني تحبينني فلماذا لم تخبريني وبكل صراحة؟!

وهكذا راح أبوجين يفرغ ما في قلبه بكل صدق أمام الدكتور، والدمع يفيض من عينيه، وكل كيانه يرتعد من أعلاه إلى أسفله. كان يتكلم بكل حماس وهو يفضي بأسراره المنزلية دون أدنى تردد. وقد بدا عليه الآن بعض البشر بعد أن رأى هذه الأسرار تتطاير من صدره في نهاية الأمر.

وبينما كان أبوجين يتكلم بدأ التغيير البين على وجه الدكتور، واختفى ملمح اللامبالاة والاستغراب من وجهه ليحل محله الشعور بالمرارة والحنق والغضب، وأصبحت ملامحه أشد قسوة وأقل سماحة.

وفجأة قفز الدكتور واقفاً على قدميه، والشرر يتطاير من عينيه، ثم قال وهو يضغط على كلماته في غلظة وخشونة:

- لماذا تكلمني عن كل هذا؟ إنه لا يعنيني، ولن أصغي إليك.

ثم بدأ يصرخ بأعلى صوته ويضرب على المنضدة بقبعته وهو يقول:

- أنا لست بحاجة إلى أسرارك التافهة، فاذهب بها إلى الجحيم! ولا تحاول أن تكلمني عن هذه الترهات. أظن أني لم أتلقَّ الكفاية من وقاحتك؟ لعلك تعتبرني خادماً لك تستطيع إهانته دون أي حرج، أليس كذلك؟

وهنا تقهقر أبوجين من أمام كيريلوف، وبدأ يحملق فيه بدهشة شديدة في حين واصل الدكتور كلامه:

- لماذا أتيت بي إلى هنا؟! لقد تزوجت لأنك لم تجد أي شيء اخر تفعله في حياتك غير الزواج. وكان يمكنك لنفس هذا السبب، أن تستمر في تمثيل مهازلك. ولكن ما شأني أنا بها؟ دعني في حالي! في وسعك أن تواصل ضرباتك اللطيفة. وأن تعرض على الملأ مُثلك الإنسانية العليا، وأن تلعب - وألقي بنظره في هذه اللحظة على آلة الموسيقية الموضوعة في ركن الغرفة - بالدف والمزمار، أنت أيها البدين الممتلئ بالشحم كالديك المخصي، ولكن لا تحاول أن تفرض تفاهاتك على الكائنات البشرية. إذا لم يكن في مقدورك أن تحترمهم، فدعهم وشأنهم!

فأجاب أبوجين، وقد اصطبغ وجهه بالحمرة:

- عفواً يا سيدي، ولكن ماذا تعني بكل هذا؟!

ورد عليه كيريلوف قائلاً:

- أعني أنه من الدناءة والحقارة أن تلعب بالناس على هذا النحو، أنا طبيب، وأنت تعتبر أن الأطباء وكل العمال الذين لا تفوح منهم رائحة العطر والدعارة ليسوا إلا خدماً لك، إلا أناساً لا وزن لهم. افعل ذلك إذا شئت ولكن لا حق لك في استخدام رجل يتألم كما تستخدم قطعة من أثاث المسرح.

فقال له أبوجين برفق، وقد تدلت ملامح وجهه من جديد - من شدة الغضب:

- كيف لك أن تجرؤ على أن توجه لي هذا القول؟

وصاح الدكتور، وقد راح يضرب الأرض بقدمه من جديد:

- وكيف تجرؤ أنت، وأنت على تمام العلم بأحزاني، على أن تأتي بي إلى هنا للاستماع إلى ترهاتك؟ ومن ذا الذي منحك الحق في السخرية من آلام الآخرين؟

وهنا صاح أبوجين قائلاً:

- لابد أن تكون مجنوناً! ويا لشح نفسك، فأنا نفسي تعس إلى أقصى حد و..

وعقب عليه الدكتور بكل سخرية:

- تعس!.. لا تستعمل هذه الكلمة، فإنها لا تنطبق عليك بأية حال.. وإلا فإن السفاحين الذين يمثلون بضحاياهم يعتبرون أنفسهم من التعساء أيضاً. والديك المخصي الذي يشكو من كثرة الشحم واللحم تعس هو الآخر.

فقال أبوجين بصوت حاد:

- إنك قد نسيت نفسك يا سيدي العزيز، فمثل هذه الكلمات، يرد عليها باللكمات.. أتفهم ما أقول؟

قال أبوجين ذلك، ثم دفع يده في جيب سترته بسرعة البرق، وأخرج حزمة من ورق النقد، وأخذ منها ورقتين ووضعهما على المنضدة وقال وقد أخذ جناحا أنفه في الارتجاف:

- هذا من أجل زيارتك، فها أنت ذا قد قبضت الثمن.

وصرخ الدكتور وهو يدفع الورقتين على الأرض:

- اتجرؤ على إعطائى نقوداً! إن النقود لا يمكن أن تصلح ثمناً للإهانة.

وهكذا وقف كل من أبوجين والدكتور وجهاً لوجه أمام الآخر، وراحا يتبادلان الشتائم المقزِعة التي لا يستحقها أي منهما. ومن المحتمل ألا يكونا قد نطقا بها في حياتهما، وحتى في حالات الهذيان، بمثل هذا القدر من الشتائم القاسية الحمقاء غير العادلة. ولا شك أن الألم الذي كان يشعر به كلا الرجلين قد أثار في كل منهما عاطفة الأثرة.

فالواقع أن أولئك الذين يتألمون يتسمون بالأثرة والغضب والجور والقسوة، ويصبحون أقل من أغبى الناس قدرة على فهم بعضهم بعضاً. ومن الأكيد أن المصاعب من شأنها أن تباعد بين الناس بدلاً من أن توحد بينهم، وحتى عندما يفترض أن التشابه في

المصائب يجب أن يجمع بين الناس، فإن الناس في هذه الحال يكونون أشد جوراً وقسوة مما لو كانوا في حالة سرور نسبي..

وأخيراً صاح الدكتور يقول بأنفاس مبهورة:

- والآن أيطيب لك أن ترسلني إلى بيتي!

فتناول أبوجين ناقوساً يدويًّا ورنه بشدة. ولما لم يجبه أحد، رنّه ثانية، ثم قذف به إلى الأرض في غضب. وعلى إثر ذلك أقبل أحد الخدم، فصاح قائلاً له:

- أين كنت مختفياً أيها الملعون؟ أين كنت الآن؟ اذهب لتجهيز العربة من أجل هذا السيد. وجهِّز العربة الصغيرة من أجلي.

ولم يكد الخادم يدير ظهره حتى صاح به من جديد:

- انتظر، لا تترك خائناً واحداً في البيت منذ الغد. اطردهم جميعاً. وسأعين خدماً جديداً! هؤلاء الكلاب!

وبعد قليل كان الدكتور قد استقر على مقعده في العربة التي تقوده إلى بيته، ولكن صورة الاحتقار اللاذع كانت لا تزال تنعكس من عينيه. وكان الظلام قد صار أحلك مما كان عليه منذ ساعة. واختفى الهلال الضارب إلى الحمرة خلف التل، وبقيت السحب الحارسة كالبقع السوداء حول النجوم. وكانت تسمع ضوضاء عجلات قادمة من الخلف. ثم لم تلبث أن لحقت بعربة الدكتور

عربة صغيرة تضيئها مصابيح حمراء. ولم تكن إلا عربة أبوجين الذي لا يزال يفكر في الاحتجاج وارتكاب بعض الحماقات.

ظل الدكتور طوال الطريق غارقاً في تفكيره، ولكنه لم يفكر في زوجته أو في أندريه. بل في أبوجين وفي سكان البيت الذي غادره منذ لحظة. وكانت أفكاره مفعمة بالحقد والقسوة، إذ راح يلعن أبوجين وزوجة أبوجين وكل من يعيشون تحت ذلك النور الوردي الخافت الذي يفوح برائحة العطر. واستسلم طول الطريق لهذا التفكير في بغضهم واحتقارهم، حتى أفعم قلبه هو نفسه بالألم من جرَّاء ذلك. وهكذا نبت في ذهنه إزاء هؤلاء الناس موقف كله جور.

ولا شك أن الزمن سيمضي، وأن حزن كيريلوف سيمضي، ولكن هذا الموقف الجائر الذي لا يليق بقلب إنساني، لن يمضيَ، بل سيظل مُنشباً جذوره في قلب الدكتور حتى يوم مماته.

III

من مذكرات رجل رصين

أنا رجل رصين ذهني يميل إلى التفكير بالقضايا الفلسفية والعقلية، ولكن بحكم عملي أهتم بالأمور المالية، فأنا أدرس الحقوق المالية في الجامعة. وأحضِّر موضوعاً بعنوان: «ماضي الضرائب على الكلاب ومستقبلها». ومن الطبيعي أن أكون في غنًى تام عن الفتيات والروايات وعن أمثال هذه السخافات.

الوقت صباح، والساعة دقت العاشرة، أعدت لي والدتي فنجاناً من القهوة. أشرب قهوتي وأخرج إلى الشرفة لأعالج موضوعي.

فأتناول ورقة بيضاء وأكتب العنوان التالي: «ماضي الضرائب على الكلاب ومستقبله». وبعد فترة قصيرة من التأمل أكتب لمحة عن التاريخ.. «استناداً إلى الملاحظات التي يبديها هيرودوت وكزينوفون، فإن منشأ الضرائب يرجع إلى...».

ولكنني أسمع هنا وقع خطوات مجهولة، أنظر إلى أسفل الشرفة فأرى فتاة مستطيلة الوجه، طويلة القامة، يدعونها فيما أعتقد نادنكا أو فارنكا، والأمر سواء ..

يبدو أنها تبحث عن شيء ما، وتتظاهر بعدم رؤيتي، وتنشد بصوت منخفض: «ألا تذكر ذاك اللحن الجميل كم يفيض رقة

وعذوبة؟!».

لقد أعدت ما كتبته منذ قليل، وحاولت متابعة عملي، غير أن الفتاة بدت وكأنها تلمحني، وقالت بصوت حزين:

- صباح الخير يا نيقولا أندريتش! هلا تنظر إليّ وتقدّر مصيبتي!

قلت:

- وما هي مصيبتك؟

قالت:

- لقد فقدت بالأمس تحفة غالية وقعت من سلسلة ساعتي.

وحاولت أن أتابع عملي للمرة الثانية، ولكن الفتاة واصلت الكلام قائلة:

- نيقولاي أندريتش..أرجوك أن تكون لطيفاً، وتعود بي إلى البيت، والسبب هو أن أسرة كاربلين عندها كلب كبير شرس للغاية، وأنا لا أستطيع الذهاب وحدي..

أرجوك.

وجدت أنه لا فائدة من التهرّب، ولا مناص من أن أمضي معها، فوضعت قلمي ونزلت. وإذا بناوندا أو فارنكا تمسك بذراعي،

وتوجهنا على هذا النحو إلى بيتها الريفي.

وأنا حينما تلقى على عاتقي مهمة الذهاب في نزهة مع سيدة أو فتاة، متشابكي الذراعين، أحس، ولا أعلم سبب ذلك، كأنني مشجب علقت عليه فروة ضخمة، أما نادنكا أو فارنكا، فقد تعلقت بذراعي.. أتعرفون العَلَقَةَ؟

لقد كانت كالعلقة تماماً.

ثم سرنا.. وسرنا، وحين مررنا بجانب أسرة كاربلين شاهدت كلباً ضخماً بالفعل، فدفعني هذا إلى التفكير بالضرائب على الكلاب، وفكرت في موضوعي الذي بدأته وتنهدت مشفقاً على الموضوع.

سألت نادنكا أو فارنكا:

- لماذا تتنهد؟!

وتنهدت هي بدورها.

وهنا لابد من أستطرد، فنادنكا أو فارنكا، وأتذكر الآن أنها تدعَى ماشتكا، يبدو في الظاهر أنها أيقنت أنني مغرم بها. ولا أدري ما الذي دفعها إلى هذا اليقين، وهي استناداً إلى هذا اليقين ترى أن عليها من الناحية الإنسانية أن ترمقني بعينين رقيقتين، وأن تعزِّى بكلماتها الرقيقة نفسي الجريحة.

- أراك تتنهد، ذلك أنك رجل محب. أما أنا فإنني أحترمك احتراماً كبيراً، ولكنني لا أستطيع أن أكافئك بالحب، فقلبي ملك لرجل آخر، وأنا لا ذنب لي في ذلك.

وهنا احمر أنفها، وفاضت عيناها بالدموع، ولكن من حسن الحظ، أننا كنا قد وصلنا إلى بيتها..

جلست والدة ماشنكا على السطح، وهي امرأة تسيطر عليها الأوهام، شأن ابنتها تماماً، وجلس على السطح أيضاً عدد كبير من الفتيات اللواتي يرتدين ثياباً مزركشة. ورأيت في وسطهن جار بيتنا الريفي، وهو ضابط متقاعد، جُرح خلال الحرب الأخيرة في صدغه الأيسر.

هذا المسكين عزم مثلي على تكريس هذا الصيف لكتابة أثر أدبي، فهو يكتب «مذكرات جندي» ويجلس مثلي كل صباح ليقوم بعمله الجليل، ولكنه ما أن كتب العبارة التالية: «ولدت في...» حتى ظهرت تحت الشرفة فارنكا أو ماشنكا، وإذا بخادم الرب يسير مخفوراً.

كان جميع الحاضرين ينظفون بعض الفواكه، فسلّمت عليهم وهممت بالانصراف، ولكن الفتيات اللواتي يرتدين أثواباً مزركشة أمسكن بقبعتي فجلست، وإذا بهن يقدّمن لي ألوان الفاكهة الشهية.. وأخذن يتحدثن عن الرجال.. هذا شاب جميل الطلعة، وآخر جميل ولكنه ثقيل الظل، وثالث لطيف غير أنه قبيح، ورابع يمكن أن

يكون ممتازاً لو لم يكن أنفه شبيهاً بقُمع (كستبان) الخياط، وهكذا دواليك...

قالت لي والدة فارنكا:

- وأنت، أيها السيد نيقولا، لست جميلاً ولكنك لطيف، هناك شيء في وجهك غريب، ولكن، على أية حال، ليس المهم في الرجال الجمال، بل الذكاء..

وتنهدت الفتيات وخفضن الطرف.. وقد أجمعن على أن المهم في الرجال ليس هو الجمال، بل الذكاء. فأدرت أنظاري نحو المرآة، لأرى إلى أي حد أنا لطيف..

فلملمت رأساً مشعثاً، ووبراً تحت العينين. وتبين لي أنني بشاربي وحاجبيَّ يمكن أن أشبه غابة بكاملها، يبرز منها أنفي الجميل كما يبرز من برج رجال الإطفاء بمضخاتهم، إني جميل بالتأكيد!

قالت والدة نادنكا - كما لو أرادت أن تؤيد فكرة خفية:

- ولكنك يا نيقولا، تأسر القلوب بصفاتك الذهنية العميقة.

أما نادنكا فهي تتألم من أجلي، ولكنها في الوقت نفسه تشعر بالسعادة والهناء، إذ هي تعتقد أنها أمام رجل محب.

وهنا بدأت الفتيات يتحدثن عن الحب، بعد أن فرغت جعبتهن من

الكلام عن عيوب الرجال. والغريب أنه ما إن اعتذرت إحداهن وغادرت حتى أخذن يذكُرنها بالسوء ويغتبنها.

وأخيراً وصلت خادمتنا، وقد أرسلتها والدتي لتدعوني إلى الغداء.

قلت: «والآن أستطيع أن ابتعد عن هذا الجمع الكريه، وأن أستأنف معالجة موضوعي». وقفت واستأذنت للانصراف، إلا أن والدة فارنكا، وفارنكا نفسها والفتيات اللواتي يرتدين ثياباً مزركشة أحطن بي جميعاً، وأجمعن على أنه لا حق لي في الرحيل أبداً، لأني وعدتهن في الليلة الماضية يتناول الغداء معهن، وبالذهاب إلى الغابة بعد الغداء لجمع الفِطْر.

فاستسلمت للأمر وأنا أكاد أنفجر غيظاً، ولكن احترام الناس والخوف من الإخلال باللياقة قد اضطرني إلى الخضوع لهؤلاء السيدات.

ها نحن أولاء جالسون إلى مائدة الطعام، والضابط الذي سبب جرحه في صدغه تقلصاً في فكيه، يأكل وكأنه شُد بزمام ووضعت شكيمة في فمه. أما أنا فأتسلى بصنع كريات من لبابة الخبز، وأفكر بالضرائب على الكلاب وأفرض على نفسي السكون، إذ أعلم أنني رجل رصين غضوب..

ونظرت نادنكا إليّ نظرة حنان، وقدمت لي حساءً بالخيار، وعجة بالبسلة، وتفاح مسلوق، فأكلت مجاملةً لا رغبة في الطعام...

ثم ذهبنا إلى الغابة، فتعلقت فارنكا بذراعي والتصقت بجنبي، فتألمت لهذا كثيراً ولكنني كظمت غيظي ولم أنبس ببنت شفة.

قالت فارنكا:

- اسغ إليّ، أيها السيد نيقولا، وأجبني لماذا أنت حزين لا تقول شيئاً؟

غريب أمر هذه الفتاة! فبأي شيء أحدثها وأية رابطة تربطني بها؟

أخذت أبحث عن موضوع تافه في مستوى إدراكها. بعد تفكير طويل قلت:

- إن حرق الأحراش يسبب أضراراً لروسيا.

فقالت فارنكا متنهدة:

- نيقولا!.. إنك تتحاشى الحديث معي حديثاً وديًّا، فهل تريد أن تعذبني بصمتك، لا سيما أن شعوري نحوك غير متبادل، فأنت وحدك تتألم، وهذا أمر رهيب، يا نيقولا، أم أنك تريد أن تضحي بحبي في سبيل إسعادك؟

تُرَى هل هي مخلصة في كلامها، أم هي دسيسة تدبرها بإحكام، حقًّا، أنا لا أفهم شيئاً البتة.

وبعدئذٍ عدنا إلى البيت الريفي فشربنا الشاي وأصغينا إلى إحدى الفتيات اللواتي يرتدين ملابس مزركشة، وهي تغني أنشودتها الحزينة: «كلا إنك لا تحبينه، كلا!

كلا..»، وهي عندما تلفظ كلمة «كلا» تلوي فمها حتى أذنيها..

لقد هبط الليل، ومن الأدغال تصاعد قمر رائع، وفي الفضاء تهادى الصمت، وتعالت رائحة كريهة، رائحة العلف الغض، فتناولت قبعتي وعدت إلى البيت، لعلني أفهم شيئاً مما حدث..

وفي اليوم التالي، ارتديت معطفي وتناولت مظلتي وتوجهت نحو البيت الصغير. ولعلمي أني رجل رصين تحاشيت أن أتجاوز في حديثي حد اللياقة، وسعيت جهدي للسيطرة على نفسي. فما قيمة المرء إذا لم يستطع السيطرة على نفسه؟

كان الجميع ينتظرونني في هذا البيت، فشاهدت نادنكا شاحبة اللون، يحمل وجهها آثار الدموع، وحين رأتني أطلقت صرخة فرح وابتهاج، وارتمت بنفسها على عنقي وهي تقول:

- وأخيراً! هل تريد أن تختبر صبري؟ ثق أني لم أستطع الرقاد طوال الليل، وأنا أفكر طويلاً فيك، فقررت أني إذا ما عرفتك عن قرب حتماً سأحبك.

وقد أصرت على أن أقبلها، فارتبكت ولم أعرف ما أقوله لها، ولكنها عبّرت عن رغبتها ثانية وألحت. فوجدت أن لا مناص من

ذلك. وقفت وطبقت شفتي على جبهتها المستطيلة. ولكن ما أن فعلت هذا حتى شعرت بنفسي ذلك الشعور الذي عانيته في طفولتي يوم اضطررت خلال الصلاة تقبيل جبهة جدتي الميتة.

ولما عدت إلى البيت خالجني الارتباك والغضب، وهناك وجدت والدة فارنكا نفسها، وهي تقبِّل أمي بتأثر بالغ، ثم تقدمت مني وعانقتني وهي تقول:

- فليباركك الله! انتبه، يجب أن تحبها حبًّا عظيماً.

قالت ذلك بعد أن وافقت والدتي على زواجي من ابنتها.

وهكذا زوجوني أخيراً، أنا الرجل الرصين، وذلك رغم أنفي، وكان في وسعي أن أتهرّب من هذا الزواج، كما فعل الضابط الجريح بحجة أن عقله غير سليم. ليتني فعلت ذلك! ولكن سبق السيف العذل!

III

في البيت

بعثت أسرة جريجوريف إلينا رجلاً ليأخذ كتاباً، لكني قلت له إنك خرجت، وجاء الساعي يحمل الصحف مع رسالتي.. ثم، يا افجيني

بتروفتش، أرجو أن تنتبه إلى سيريوجا، فقد لاحظت اليوم وأول أمس أنه يدخن لفافة تبغ، وحينما أخذت ألومه وأوبخه سد أذنيه كعادته وشرع يغني حتى لا يسمع صوتي..

وافجيني بتروفتش مدعٍّ عام في قصر الإمبراطور، عاد منذ قليل من هذا القصر وترك قفازيه في مكتبه، وما أن نظر إلى المربية التي حملت إليه هذا الخبر حتى قال ضاحكاً وهو يهز كتفيه:

- سيريوجا يدخن.. إنني أتصور جيداً هذا الولد وهو يدخن لفافة تبغ!.. كم يبلغ من العمر بالضبط؟

- سبع سنوات يا سيدي. قد لا يبدو لك هذا الأمر ذا أهمية، ولكن التدخين في هذه السن عادة خبيثة، ويجب العمل منذ البداية على استئصال العادات الخبيثة قبل رسوخها.

- كلامك عين الصواب، ولكن من أين يأخذ التبغ؟

- من درج مكتبك.

- نعم؟... من درج مكتبي؟... إذن ابعثي به إليَّ.

وعلى بعد غرفتين من المكتب سمع حديث المربية وسريوجا، كان الطفل يغني قائلاً:

- بابا وصل!.. با.. با.. و.. صل.. با.. با.. با.. وا.. صل..

وصاحت به المربية صيحة قاسية، وكأنها طائر مذعور:

- أسرع.. والدك يدعوك.. اذهب بسرعة.. إليك أوجه الكلام!

وفكر أفجيني بتروفتش قائلاً: «ما عساني أقول له؟»، ولكنه قبل أن يجد شيئاً يقوله، دخل سريوجا المكتب.

إنه طفل لا نستطيع أن نحكم على جنسه إلا بلباسه. شاحب، ناعم، رخو، منفوخ كأنه نبات وُضع ضمن بيت اصطناعي خاص لتربيته فيه. كل شيء فيه لطيف وغض إلى أبعد حد: حركاته، شعره المجعد، نظراته، ومخمل سترته.

قال بصوت لطيف وهو يتسلق ركبتي والده ويقبله في عنقه:

- صباح الخير يا بابا! هل ناديتني؟

أجاب المدعي العام وهو ينحِّيه جانباً:

- اصغ إليَّ يا سرجي أفينتش قبل أن نتعانق، لابد لنا من أن نتحدث، وأن نتحدث حديثاً جادًّا .. أنا غير راض عنك، اعلم هذا يا ولد: إنني لا أحبك، وأنت لست أهلاً لأن تكون ولدي.. تماماً. ورمق سريوجا والده بنظرة، ثم نظر ناحية المنضدة ورفع كتفيه، وسأله وقد تملكته الدهشة وارتعش جفناه:

- ماذا فعلت؟!.. لم أدخل اليوم مكتبك مرة واحدة، ولم ألمس شيئاً.

- لقد جاءت ناتاليا سيمونفنا إليَّ وادعت أنك تدخن.. هل هذا صحيح؟ قل.. هل أنت تدخن؟

- نعم.. دخنت مرة واحدة.

قال المدعي العام وهو يقطِّب حاجبيه كي يخفي ابتسامته:

- أنت ترى ذلك. وبالإضافة إلى هذا الأمر إنك تكذب. لقد رأتك ناتاليا تدخن مرتين. أنت قمت بثلاثة أشياء حقيرة.. أنك تدخن وتأخذ من درجي تبغاً لا يخصك ثم تكذب. ثلاثة ذنوب لا ذنباً واحداً.

تذكر سريوجا، وقد ابتسمت عيناه وقال:

- آه! نعم! هذا صحيح، صحيح! لقد دخنت مرتين اليوم، ومن قبل.

- لم يكن هذا الأمر مرة واحدة، كما ترى، بل مرتين!.. فأنا غير راضٍ عنك، غير راضٍ عنك أبداً. لقد كنت فيما مضى طفلاً صالحاً، ولكن أراك قد فسدت وأصبحت شيئاً سيئاً.

وسوَّى أفجيني بتروفتش شعر رأس طفله، وفكر: «ما عساي أقول له أيضاً».. ثم أردف قائلاً:

- نعم، هذا قبيح، لم أكن أتوقعه منك. فأولاً لا يحق لك أن تأخذ تبغاً لا تملكه. لا يحق لأحد أبداً أن يتصرف إلا بما يخصه. وهو إن أخذ

شيئاً من الآخرين.. كان رجلاً سيئاً.

وفكّر أفجيني بتروفتش قائلاً في نفسه: «إني لا أقول له ما يجب قوله». ثم وجّه قوله لولده:

- تملك سيمونفنا حقيبة وثياباً، فلا يحق لنا أن نلمسها لأنها ليست لنا. أليس كذلك؟.. وأنت.. عندك خيول وصور. فأنا لا آخذها أيضاً! قد تكون عندي رغبة في ذلك، ولكن.. هذه الأشياء ليست لي، بل لك!

قال سيريوجا وهو يرفع حاجبيه:

خذها، إذا شئت، أرجوك يا بابا، لا تزعج نفسك، خذها!

والكلب الصغير الموجود هنا على المنضدة، هو أيضاً لي، ولكن لا مانع، احتفظ به لديك.

فقال المدعي العام:

- إنك لا تدري تماماً ما أقول، أنت إن اعطيتني هذا الكلب، أصبح لي، ويمكنني أن أصنع به ما أريد، ولكني لم أعطك التبغ!

فالتبغ يخصني!

وفكر المدعي العام قائلاً: «إني لا أشرح له كما يجب، ليس هذا ما

أقصده، ليس هذا على الإطلاق!». ثم تابع قوله:

- إذا أردت أن أدخن تبغاً لا يخصني، وجب عليَّ قبل كل شيء أن استأذن..

وأخذ إفجيني بتروفتش يشرح لابنه الملكية، ويتحدث بلهجة الأطفال ومنطقهم. وكان سريوجا يصغي بانتباه وقد أرخى طرفه إلى صدره (فقد كان يحب أن يتجاذب أطراف الحديث في المساء مع والده) واتكأ بعد ذلك بمرفقه إلى المنضدة وشرع يغمض عينيه فوق الورق والحبر وتاه بصره على المنضدة وتوقف على زجاجة الصمغ، وإذا به يقول وهو يُدني الزجاجة من عينيه:

- بابا، بماذا يصنعون الصمغ؟

فنزع افجيني بتروفتش الزجاجة من يد الولد ووضعها في مكانها، وفكر في نفسه: «ماذا يمكنني أن أقول له؟ فهو لا يُصغي إليَّ، لأنه لا يعبأ بأخطائه، ولا يعتبر كلامي أمراً جديًّا. وكيف السبيل إلى إدخال ذلك في رأسه؟».

ونهض المدعي العام وأخذ يروح ويجيء في مكتبه وهو يفكر:

«قديماً كانت والدتي تغدق عليّ المال والحلوى كي أقلع عن التدخين. تبدو هذه الوسائل في وقتنا الحاضر عديمة الجدوى وبعيدة عن موضوع الأخلاق. فالمربي المعاصر يستند إلى المنطق ويسعى جهده إلى أن يعتنق الطفل المبادئ الصالحة لا بدافع

الخوف أو رغبته في الظهور أو طمعاً بمكافأة، بل بوازع من ضميره».

وبدا لافجيني بتروفتش أنه من الغريب والمضحك أن يضل ولا يدري ما يقوله لطفل، وهو القاضي المحنك الذي أمضى نصف حياته في إصدار مختلف الأحكام في إحقاق الحق وفرض العقوبات. قال له:

- أصغِ إليَّ.. عدني بشرفك أنك لن تدخن.

ردَّد سريوجا مغنياً:

- بش.. ر.. في!

فتساءل الأب: «ترى هل يعلم معنى كلمة الشرف؟.. كلا إني مربٍّ رديء! فلو أن مربياً قديراً أو لنقل أحد قضاتنا نفذ ببصره إلى صميم رأسي لعدّني طفلاً في هذا الميدان ولوصمني بفلسفة مغالية متطرِّفة.. غير أن هذه القضايا اللعينة يُفصل فيها في المدرسة وفي المحكمة بطريقة أسهل جدًّا مما يفصل فيها في البيت هنا نحن بإزاء مخلوقات نحبها بجنون، فهذه هي المشكلة أن الحب قهّار ومعقد. ولو أن هذا الطفل لم يكن ولدي، بل كان تلميذي أو أحد المتهمين، لكن موقفي يختلف ولكان خوفي أقل، ولما تاهت أفكاري..».

ودقت الساعة العاشرة، فقال المدعي العام:

- هيا، يا صغيري، لقد حان وقت الذهاب إلى الفراش. ودعني أذهب.

فقال سريوجا، وقد تجهم وجهه:

- لا يا بابا، دعني أيضاً. قص عليَّ شيئاً! احك لي قصة.

- حسناً ولكن بعد القصة إلى السرير مباشرة.. مفهوم؟!

لقد اعتاد افجيني بتروفتش أن يقص على ولده في بعض الأمسيات، وفي أوقات فراغه، حكايات قصيرة. فهو كسائر رجال الأعمال، لم يكن يحفظ القصائد ولا يتذكر القصص. وكان عليه في كل مرة أن يعمد إلى الارتجال. فكان يبدأ عادة بجملة تقليدية: «في إحدى الممالك، وفي إحدى الدول..». ثم يشرع في سرد شتى الأحاديث التافهة الساذجة. وهو إذا بدأ بقصته لا يعلم من أين يبدأ وأين ينتهي. فالمشاهد والأشخاص والحالات الحرجة تأتي خبط عشواء وعن طريق المصادفة.

وإذا بالقصة الخيالية وبالمغزى ينحدران على الرغم من إرادة الراوي. وكان سريوجا يحب كثيراً هذه الأحاديث أو القصص المرتجلة. ويلاحظ المدعي العام أنه كلما كان عرض القصة متواضعاً بسيطاً كان أثره في الطفل أشد وأقوى. بدأ كلامه وهو ينظر إلى السقف:

- اصغ إليَّ.. في إحدى الممالك، وفي إحدى الدول، كان يعيش ملك

عجوز، عجوز جداً. له لحية كبيرة بيضاء، في قصر من زجاج يلمع ويلمع، إنه يتألق تحت الشمس، وكأنه قطعة كبيرة، من الثلج الصافي .. والقصر يا صغيري يوجد في حديقة كبيرة جدًّا. يوجد فيها كما تعلم، برتقال وليمون وكرز أحمر وأبيض.. وتزهر فيها شجيرات التوليب والورد والسوسن.. وتغرّد فيها عصافير ذات ألوان مختلفة.. أحمد أصفر أزرق.. نعم.. وهناك أجراس صغيرة من الزجاج تتدلى من الأشجار، وعندما تهب الريح، تجدها ترن بعذوبة لا مثيل لها، فيصغي إليها الناس مرغمين، الزجاج يعطي صوتاً أنعم وأرق من المعدن. وماذا يوجد أيضاً؟ كانت هناك نافورات من الماء في الحديقة. هل تذكر أنك شاهدت نافورة عند العمة سونيا في الريف؟

إنها تشبه النافورات الموجودة في القصر الملكي، ولكنها أكبر منها بكثير، فقد بلغ عمود الماء طول قمة أشجار الحور.

فكّر أفجيني بتروفتش، ثم تابع كلامه:

كان للملك العجوز ولد وحيد، وريث العرش. وهو لا يزال طفلاً مثلك. فقد كان طفلاً صالحاً، فلا تصدر عنه هفوات أو أخطاء، ينام باكراً، ولا يلمس شيئاً على المنضدة و.. كان على العموم هادئاً، عاقلاً، وليس فيه إلا عيب واحد: أنه يدخن..

كان سريوجا يصغي بانتباه، وينظر إلى والده وجهاً لوجه، دون أن يغمض عينيه. في حين تابع والده؛ وهو يفكر ماذا يمكن أن يحدث

بعد ذلك؟ فقد كان يحلل كلامه ويصفِّيه، كما يقال، وأنهى قصته بمهارة قائلاً:

ولكن الملك الصغير، لإفراطه في التدخين، أصابه مرض السل ومات. ولمّا يبلغ العشرين من عمره. أما العجوز الفاني الضعيف فقد بقى بلا معين. ولم يعد هناك أحد يقود المملكة ويدافع عن القصر. فجاء بعض الأعداء وقتلوا الملك الكبير وهدموا القصر. ولم يعد في القصر لا كَرْز أحمر ولا أبيض.. ولا طيور.. ولا أجراس صغيرة.. وهكذا يا صغيري.

وبدت هذه النهاية لأفجيني بتروفتش مضحكة ساذجة، ولكن القصة كلها تركت أثراً عميقاً في نفس سريوجا فاكتست عيناه بالأسى والذعر. وحدق لحظة بالنافذة المظلمة وهو يفكر، ثم انتابته رعشة، وقال بصوت محطم:

- لن أدخن ما حَييت يا بابا.

وحينما ودَّع والده ومضى ليأوي إلى فراشه، كان أبوه يروح ويجيء على مهل في مكتبه من زاوية لأخرى، وقد ارتسمت على محيَّاه ابتسامة عريضة. وقال في نفسه:

«لابد من أن يكون الدواء محلَّى بالسكر، ولابد من أن تكون الحقيقة مزيَّنة».

III

بدلة النقيب

عبست الشمس الصاعدة فوق المدينة، وبدأت الديوك تتمطى لتوِّها، بينما كان الزبائن جالسين في حانة العم ريليكين كانوا ثلاثة: الخياط ميركولوف والشرطي جراتفا والصراف سيمخونوف. وكانوا ثلاثتهم سُكارَى.

قال ميركولوف وهو يمسك بأحد أزرار سترة الشرطي:

ـ لا تقل ذلك، لا تقل ذلك! المرتبة في المؤسسات المدنية، إذا أخذنا العليا منها، تفوق رتبة الجنرال من ناحية الخياطة. خذ مثلاً وصيف البلاط.. من هو هذا الشخص؟ من أية رتبة؟

لكن خذ احسب.. أربع أذرع من أغلى أنواع الجوخ، إنتاج فابريكة بروندل وأبنائه وأزرار، وياقة ذهبية، وسراويل بيضاء بأشرطة ذهبية، والصدر كله بالذهب، القبة والأكام والعراوي.. كله يلمع! لو أنك الآن خيّطت حُللاً لسادة كبار من مدراء الأقسام ورجال البلاط ومختلف الوزراء.. كيف تظن؟. أذكر أننا خيطنا لواحد من هؤلاء السادة، الكونت أندريه سيميونيتش.. بدلة لا تلمسها في حياتك! إذا أمسكتها بين يديك وجدت النبض ينفض في عروقك.

السادة الحقيقيون عندما تخيطّ لهم إياك أن تزعجهم. خذ المقاس

وخيّط على طول. أما أن تتردد عليهم وتروح وتجيء لعمل بروفات وضبط التفصيل، فهذا هو المستحيل بعينه. إن كنت خياطاً قديراً فخيط بعد أخذ المقاس على طول.. اقفز من أعلى البرج بشرط أن تدخل بقدميك في الحذاء مباشرة، أرأيت!.. وكانت بجوارنا يا أخي كما أذكر الآن ثكنة للشرطة.. فكان رئيسنا أوسيب يا كليتش يختار من رجال الشرطة الرجال الذين تتفق أجسامهم مع أجسام الزبائن لكي نعمل البروفات عليهم. وثم، يعني.. اخترنا يا أخي شرطيًّا مناسباً لبدلة الكونت. استدعيناه.. هيا البس يا أحمق وتبختر! ولبس البدلة.. ويا له من منظر مضحك! ما أن نظر إلى صدره حتى ارتعش، أتعرف؟ سقط مغشيًّا عليه..

واستفهم سيمخونوف:

- وهل فصَّلتم لمأموري المراكز؟

- وهل هؤلاء شخصيات؟.. في بطرسبورج هؤلاء المأمورون كالكلاب الضالة.. هنا يرفعون لهم القبعات وينحنون، أما هنالك فيقولون لهم: «افسح الطريق، لا تزاحم!». كنا نفصِّل الحلل للسادة العسكريين والشخصيات من المراتب الأربع الأولى. وكل شخصية تختلف عن الأخرى.. فإذا كنت مثلاً من الرتبة الخامسة فأنت تافه.. تعال بعد أسبوع وتكون البدلة جاهزة، لأنه ليس هناك ما تفعله غير الياقة والأساور.. أما إذا كنت من الرتبة الرابعة أو الثالثة، أو مثلاً الثانية، عندئذٍ ينهال علينا صاحب المحل، وينتهي الأمر في الشرطة. ذات مرة فصَّلنا بدلة للقنصل الفارسي. وطرّزنا له على

الصدر والظهر قصباً ذهبياً بألف وخمسمائة روبل. وظننا أنه لن يدفع، ولكن لا، لقد دفع.. في بطرسبورج حتى التتر تجدهم نبلاء الطباع.

وظل ميركولوف يتحدث طويلاً. وفي الساعة التاسعة، وتحت تأثير الذكريات، بكى وراح يشكو بحرقة حظه الذي رماه في هذه المدينة الصغيرة المليئة بالتجار والبرجوازيين فقط.

وكان الشرطي في هذه الفترة قد ساق اثنين إلى قسم البوليس، وذهب الصراف مرتين إلى البريد وعاد، بينما كان ميركولوف لا يزال يشكو.. وفي الظهر وقف أمام الشماس وأخذ يضرب صدره بقبضته ويقول بتذمر.

- لا أريد أن أفصِّل للأوغاد! أنا أرفض أن أفصّل لهم! في بطرسبورج فصّلت بنفسي للبارون شبوتسيل وللسادة الضباط! ابتعد عني يا قفطان ولائم الموتى، إياك أن تقع عيناي عليك! ابتعد!

فأكّد الشماس للخياط:

- أنت تضع نفسك في مكانة عالية. صحيح أنت فنان في عملك، ولكن لا يجوز أن تنسى الله والدين. «آرى» أيضاً وضع نفسه عالياً، مثلك، ولكنه مات من الإسهال.

أوه، وأنت أيضاً ستموت!

- سأموت! الأفضل أن أموت ولا أفصِّل معاطف فلاحية.

تردد فجأة صوت نسائى خلف الباب:

- هل شيطاني هنا؟!

ودخلت الحانة أكسينيا زوجة ميركولوف، وهي امرأة عجوز، مشمرة الأكمام، ومنتفخة البطن.

صاحت قائلة:

- أين هو هذا الصنم؟

وطافت على رواد المكان بنظرة غاضبة، ثم قالت لزوجها:

- اذهب إلى البيت.. تخطفك مصيبة إن شاء الله.. هناك ضابط يسأل عنك.

فتساءل ميركولوف باندهاش:

- أي ضابط؟

- وما أدراني؟!.. يقول إنه جاء ليفصِّل بدلة.

حك ميركولوف أنفه الكبير براحته كلها، وهو ما كان يفعله دائماً عندما يريد أن يعبّر عن دهشته البالغة . ودمدم:

- هذه المرأة أصابتها لوثة.. منذ خمسة عشر عاماً لم أر وجهاً نبيلاً، وفجأة يأتي الآن، وفي يوم الصيام، ضابط ليفصل بدلة! فلأذهب لأرى!

وخرج ميركولوف من الحانة، ومضى إلى البيت وهو يترنح. ولم تكذب عليه زوجته، فقد رأى أمام عتبة داره النقيب أورتشايف، سكرتير قائد الحامية المحلية.

قال النقيب:

- أين كنت تتسكع؟.. انتظرتك منذ ساعة.. هل تستطيع أن تفصّل لي بدلة؟

فدمدم ميركولوف وهو يتحشرج:

- يا صاحب المعالي.. يا إلهي!

ونزع من على رأسه القبعة مع خصلة من شعر رأسه:

- يا صاحب المعالي! وهل هذا جديد عليَّ؟ آه يا إلهي! فصَّلت للبارون شبوتسيل.. إداورد كارليتش.. والسيد الملازم زيمبولاتوف مدين لي حتى الآن بعشرة روبلات..

آه!

يا امرأة، هاتي لصاحب المعالي كرسيًّا.. آه يا ربي.. هل تأمرون بأخذ مقاسكم أم تسمحون أن أفصّل بمجرد النظر؟

- طيب.. القماش من عندك، وتكون جاهزة بعد أسبوع.. كم تريد؟

- العفو يا صاحب المعالي.. ماذا تقول؟

وضحك ضحكة ساخرة قصيرة، ثم أردف:

- وهل أنا تاجر؟.. إننا نعرف كيف نتعامل مع السادة.. حتى عندما فصّلنا للقنصل الفارسي.. فصّلنا بدون كلام..

وبعد أن أخذ ميركولوف مقاييس النقيب وودعه، ظل واقفاً ساعة كاملة في وسط الغرفة، وهو يحدّق في زوجته ببلاهة. لم يكن يصدق.. وأخيراً تمتم:

- يا لها من مفاجأة، يا سلام! من أين أحصل على النقود للقماش؟.. يا اكسينيا.. اقرضيني يا زوجتي العزيزة ذلك المبلغ الذي حصلت عليه من بيع البقرة.

أخرجت له اكسينيا لسانها، ثم بصقت. وراحت تكسر على رأسه الصحاف الفخارية، وتسحبه من لحيته، ثم تخرج إلى الشارع وتصيح: «يا عباد الله! انظروا!

قتلني!.». وفي اليوم التالي رقدت في الفراش وهي تخفي عن

صبيان الخياط الكدمات الزرقاء في وجهها، التي خلّفتها الضربات التي تلقتها من زوجها، هذا بينما كان ميركولوف يطوف بالدكاكين ويتشاجر مع التجار وهو ينتقي الجوخ المناسب.

وحل عهد جديد بالنسبة للخياط. فبعد أن يستيقظ ويطوف بنظراته الغائمة على عالمه الصغير، لم يعد يبصق بحقد.. وكف عن الذهاب إلى الحانة وانهمك في العمل. وبعد أن يصلي بصوت خافت يضع النظارة على عينيه ويقطّب جبينه، ويفرش القماش على الطاولة بخشوع ويبدأ في العمل.

وبعد أسبوع كانت البدلة جاهزة. وبعد أن كواها ميركولوف، خرج إلى الشارع وعلَّقها على السور المجدول من الأغصان وراح ينظفها.. ينزع منها وبرة، ثم يبتعد لمسافة ذراع ويحدق في البدلة طويلاً بعينين مزرورتين، ثم يعود فينزع وبرة أخرى، وهكذا لمدة ساعتين.

وكان في أثناء ذلك يخاطب المارة قائلاً:

ـ ما أشق العمل مع هؤلاء السادة! لم أعد أطيق، خارت قواي! قوم مثقفون، مهذبون، فلتحاول أن تنال رضاهم!

وفي اليوم التالي، وبعد أن نظف ميركولوف البدلة، دهن رأسه بالزيت وصفف شعره، ولف البدلة في قطعة من قماش شيت جديد، وتوجه إلى النقيب.

وكان يقول لكل من يقابله ويستوقفه في الطريق:

- لا وقت عندي للكلام معك أيها الأحمق. ألا ترى أنني أحمل بدلة السيد النقيب؟!

وبعد نصف ساعة عاد من عند النقيب، واستقبلته زوجته أكسينيا وهي تبتسم ابتسامة عريضة، وقالت بخجل:

- مبروك المكسب يا ميركولوف.

فأجابها:

- يا لك من حمقاء. أتظنين السادة الحقيقيين يدفعون فوراً؟!.. ليسوا كالتجار الذين ما أن تعطيهم حتى يدفعوا فوراً.. يا لك من حمقاء!

رقد ميركولوف يومين في المنزل. لم يغادره. ولم يشرب أو يأكل. واستسلم لمشاعر الرضا عن النفس. تماماً مثل هرقل بعد أن انتهى من تحقيق كل بطولاته. وفي اليوم الثالث ذهب ليحصل على النقود.

وقال هامساً لخادمه وهو يتسلل زاحفاً إلى المدخل:

- هل استيقظ صاحب المعالي؟

وعندما تلقى الإجابة بالنفي، وقف كالعمود بجوار الباب، وراح

ينتظر. ثم سمع بعد انتظار طويل صوت النقيب المبحوح:

- اطرده من هنا!.. قل له يوم السبت.

ويوم السبت سمع نفس الشيء. وفي السبت الذي تلاه.

وفي السبت الثالث.. شهراً كاملاً قضاه في التردد على النقيب، والانتظار في المدخل ساعات طويلة، وبدلاً من النقود كان يحصل على دعوة بالذهاب إلى الشيطان والمجيء يوم السبت. ولكنه لم ييأس ولم يتذمر. بالعكس. أعجبه الانتظار الطويل في المدخل وكانت: «اطرده من هنا» تنساب في أذنيه كاللحن العذب. وعندما كان يعود إلى البيت، كان يقول بإعجاب:

- هذا هو السيد النبيل! عندنا في بطرسبورج كانوا كلهم كذلك.

وكان ميركولوف مستعدًّا حتى آخر أيام عمره أن يتردد على النقيب، وينتظر في المدخل، لولا أكسينيا التي كانت تلح عليه وتطالبه بإعادة النقود: ثمن البقرة.

كانت تلقاه كل مرة بالسؤال:

- هل جئت بالنقود؟ كلا؟.. ما الذي تفعله بي أيها الوحش الكاسر؟ هه؟..

وذات مساء كان ميركولوف عائداً من السوق، حاملاً على ظهره

جوال فحم، ومن خلفه. كانت أكسينيا تسير بعجلة، كانت تدمدم وهي تفكر في النقود: ثمن البقرة:

- مهلاً.. سوف أريك عندما نصل إلى البيت!

وفجأة توقف ميركولوف وتسمّر في مكانه وصاح بفرح. فمن حانة «المرح» التي كانا يمران بجوارها، انطلق مندفعاً سيد ما يضع في رأسه قبعة أسطوانية، كان وجهه أحمر وعينيه ثملتين. وكان النقيب أورتشايف يجري خلفه بلا قبعة، مشعث الشعر والثياب، وفي يده عصا بلياردو. وكانت بدلته الجديدة ملوثة بالطباشير، وإحدى الكتافيات قد مالت جانباً.

صاح النقيب وهو يلوِّح بجنون بالعصا، ويمسح العرق من فوق جبينه:

- سأُرغمك على اللعب أيها المحتال! سأعلمك أيها الغشاش كيف تلعب مع الشرفاء!.

وهمس بيركولوف لزوجته وهو يلكزها في جنبها:

- انظري يا حمقاء! هذا هو السيد النبيل. فالتاجر إذا فصَّل لسحنته الفلاحية بدلة فإنها لا تبلى. يلبسها عشر سنين. أما هذا فانظري كيف جعل البدلة خرقة! ليس غريباً لو احتاج لواحدة جديدة.

فقالت إكسينيا:

- اذهب واطلب منه النقود!

- ماذا تقولين يا حمقاء؟.. في الشارع؟.. لا يمكن أبداً..

ورغم مقاومة ميركولوف، فقد أرغمته زوجته على الذهاب إلى النقيب، ومفاتحته في أمر النقود.

فأجابه النقيب:

- امش من هنا. أضجرتني!

- أنا فاهم يا صاحب المعالي.. فاهم.. أنا لا أريد.. لكن زوجتي.. حمقاء لا تفهم.. حضرتكم تعرفون أي عقل يمكن أن يكون في رأس هؤلاء النسوة..

فزأر النقيب وهو يحملق فيه بعينين ثملتين:

- قلت لك أضجرتني! امش من هنا!

- مفهوم يا صاحب المعالي!.. ولكن بخصوص زوجتي. لأن النقود، إذا أردتم سيادتكم أن تعرفوا، هي نقود البقرة.. بعنا البقرة للأب يهوذا..

- آه.. وتجسر على الكلام أيها الحشرة!

وطوّح النقيب ذراعه و.. طراخ! وتساقط الفحم من على ظهر

ميركولوف، ومن عينيه تطاير الشرر، ومن يديه سقطت القبعة.. وتملك الذهول أكسينيا، ووقفت متصلبة حوالي الدقيقة، مثل زوجة لوط عندما تحولت إلى عمود ملح، ثم خطت إلى الأمام ونظرت بوجل إلى وجه زوجها.. ولدهشتها البالغة كان وجه ميركولوف يتهلل بابتسامة غبطة، بينما اغرورقت عيناه الضاحكتان بالدموع. ودمدم:

- هؤلاء هم السادة الحقيقيون! أناس مهذَّبون، مثقفون.. بالضبط كما حدث.. وفي نفس المكان.. عندما حملت المعطف إلى البارون شبوتسيل.. طوّح يده و.. طراخ!

والسيد الملازم زيمبولاتوف أيضاً.. جئت إليه فهبَّ واقفاً وبكل قوته.. أوه راح ذلك الزمن يا زوجتي! أنت لا تفهمين شيئاً! راح زمني!

وأشاح يده، ثم جمع الفحم، ومضى إلى البيت.

III

البدين والنحيف

في محطة سكة حديد نيقولاي التقى صاحبان: أحدهما بدين والآخر نحيف. كان البدين قد تغدَّى لتوه في المحطة ولمعت شفتاه من الدهن كما تلمع ثمار الكرز الناضجة. وفاحت رائح النبيذ والحلويات المعطرة. أما النحيل فكان خارجاً لتوه من عربة القطار محملاً بالحقائب والصور وعلب الكرتون. وكانت تفوح منه رائحة لحم الخنزير والقهوة الرخيصة. ولاحت من وراء ظهره امرأة نحيفة طويلة الذقن.. زوجته، وتلميذ طويل بعين مزرورة.. ابنه.

هتف البدين عندما رأى النحيف:

بورفيري! أهو أنت؟ يا عزيزي! كم مرة من أعوام لم أرك!

ودهش النحيف:

- أوه.. ميشا!.. صديق الطفولة! من أين جئت؟

وتبادل الصاحبان القبلات ثلاثاً.. وحدّق كل منهما في الآخر بعينين مغرورقتين. وكان كلاهما في حالة من الذهول اللذيذ.

وقال النحيف بعد القبلات:

- يا عزيزي! لم أتوقع أبداً! يا لها من مفاجأة! هلا نظرت إليَّ جيداً!.. جميل كما كنت! حبوب وغندور كما كنت! آه يا إلهي! كيف هي أحوالك؟.. أصبحت غنيًّا؟.

تزوجت؟. أنا تزوجت كما ترى.. وهذه زوجتي، لويزا.. من عائلة فانسنباخ.. بروتستانتية.. أما هذا فابني، نفانائيل، تلميذ بالصف الثالث. يا نفانيا، هذا صديق طفولتي!

درسنا معاً في مدرسة واحدة.

وفكر نفانائيل قليلاً ثم نزع قبعته.

ومضى النحيف يقول:

- درسنا معاً في مدرسة واحدة! أتذكر كيف كانوا يغيظونك؟.. كانوا يلقبونك بلقب هيروستراتوس لأنك أحرقت بالسيجارة كتاب عهدة. وكانوا يغيظونني بلقب افيالتوس، لأنني كنت أحب النميمة.. ها ها.. كم كنا صغاراً! لا تخف يا نفانيا.. اقترب منه.. وهذه زوجتي، من عائلة فانسنباخ.. بروتستانتية.

وفكر نفانائيل قليلاً، ثم اختبأ خلف ظهر أبيه.

وسأل البدين وهو ينظر بإعجاب إلى صديقه:

- كيف حالك يا صديقي؟ أين تخدم؟ وماذا بلغت في الخدمة؟

- أخدم يا عزيزي؟!.. بلغت محكِّم هيئة منذ سنة وأحمل وسام ستانسلاف. الراتب سيء.. فليكن! زوجتي تعطي دروساً في الموسيقى، وأنا أصنع علب سجائر من الخشب. علب ممتازة! أبيعها الواحدة بروبل.

ومن يشتري عشر علب أو أكثر أقدم له خصماً. ندبّر أمورنا كيفما كان. أتدري، كنت أخدم في الإدارة، وقد نقلت إلى هنا الآن كرئيس قسم يتبع نفس الوزارة..

سوف أخدم هنا.. وأنت؛ كيف؟ أظنك بلغت مستشار دولة؟ هه؟

فقال البدين:

- لا يا عزيزي.. بل أعلى.. لقد بلغت درجة المستشار السري.. أحمل نجمتين.

وفجأة امتقع وجه النحيف، وتجمد، ولكن سرعان ما التوى فمه في جميع الاتجاهات ليصنع ابتسامة عريضة للغاية.

وبدا وكأن الشرر قد تطاير من وجهه وعينيه. أما هو فانكمش وتحدب وضاق. وانكمشت حقائبه وصُوره وعلبه وتجعدت.. واستطال ذقن زوجته الطويل.. وشدّ نفانائيل قامته وزرر جميع أزرار سترته..

قال النحيف:

- إنني يا صاحب السعادة.. مسرور جدًّا! صديق الطفولة، يعني، وإذا به يصبح من السادة الأكابر هيء هيء.

فامتعض البدين وقال:

- دعك من هذا! ما هذه النبرة؟ إننا أصدقاء الطفولة، فما معنى عبادة الألقاب هذه؟!

فضحك النحيف ضحكة صفراء وازداد انكماشاً:

- العفو.. ماذا تقولون؟!.. إن اهتمام سعادتكم الكريم.. هو كالبلسم الشافي.. هذا هو ابني نفانائيل يا صاحب السعادة.. وزوجتي لويزا، بروتستانتية إلى درجة ما..

وأراد البدين أن يعارض بشيء ما، ولكن وجه النحيف كان يطفح بالتبجيل والتعبير المعسول والخنوع إلى درجة أثارت الغثيان في نفس المستشار السري. فأشاح بوجهه عن النحيف، ومدَّ له يده مودِّعاً.

وصافح النحيف ثلاث أسابيع، وانحنى بجسده كله وضحك كالصيني: هيء - هيء - هيء. وابتسمت الزوجة.

ومسح نفانائيل الأرض بقدمه وسقطت منه القبعة.

وكانوا ثلاثتهم في حالة من الذهول اللذيذ.

III

المغفلة

منذ أيام دَعَوْت إلى غرفة مكتبي مربية أولادي يوليا فاسيليفنا لكي أدفع لها حسابها.

قلت لها:

- اجلسي يا يوليا فاسيليفنا. هيا نتحاسب. أنت في الغالب بحاجة إلى النقود، ولكنك خجولة إلى درجة أنك لن تطلبيها بنفسك.. حسناً.. لقد اتفقنا على أن أدفع لك ثلاثين روبلاً في الشهر.

- أربعين..

- كلا.. ثلاثين.. هذا مسجَّل عندي.. كنت دائماً أدفع للمربيات ثلاثين روبلاً. حسناً، لقد عملت لدينا شهرين..

- شهرين وخمسة أيام..

- شهرين بالضبط.. هكذا مسجل عندي.. إذن تستحقين ستين روبلاً.. نخصم منها تسعة أيام آحاد. فأنت لم تعلِّمي كوليا في أيام الآحاد، بل كنت تتنزهين معه فقط.. ثم ثلاثة أيام أعياد.

تضرج وجه يوليا فاسيليفنا، وعبثت أصابعها بأهداب الفستان

ولكن.. لم تنبس بكلمة!

- نخصم ثلاثة أعياد، إذن المجموع اثنا عشر روبلاً.. وكان كوليا مريضاً أربعة أيام ولم تكن هناك دروس تلقّاها، كنت تدرسين لفاريا فقط.. وثلاثة أيام كانت أسنانك تؤلمك، فسمحت لك زوجتي بعدم التدريس بعد الغداء.. إذن اثنا عشر زائد سبعة - تسعة عشر.. نخصم الباقي.. هِمْ .. واحد وأربعون روبلاً.. مضبوطة؟

احمرت عين يوليا فاسيليفنا اليسرى وامتلأت بالدمع، وارتعش ذقنها. وسعلت بعصبية وتمخطت، ولكن.. لم تنبس بكلمة!

- قبيل رأس السنة كسرت فنجاناً وطبقاً.. نخصم روبلين.. الفنجان أغلى من ذلك، فهو موروث، ولكن فليسامحك الله! علينا العوض.. نعم، وبسبب تقصيرك تسلق كوليا الشجرة ومزق سترته.. نخصم عشرة..وبسبب تقصيرك أيضاً سرقت الخادمة من فاريا حذاء. ومن واجبك أن تراعى كل شيء، فأنت تتقاضين مرتباً.

وهكذا نخصم أيضاً خمسة.. وفي 10 يناير أخذت مني عشرة روبلات.

فهمست يوليا فاسيليفنا:

- لم آخذ!

- ولكن ذلك مسجل عندي!

- طيب.. ليكن!

- من واحد وأربعين نخصم سبعة وعشرين.. الباقي أربعة عشر.

امتلأت عيناها الاثنتان بالدموع.. وطفرت حبات العرق على أنفها الطويل الجميل. يا للفتاة المسكينة! وقالت بصوت متهدج:

- أخذت مرة واحدة.. أخذت من حرمكم ثلاثة روبلات.. لم آخذ غيرها.

- حقًّا؟ انظري، وأنا لم أسجل ذلك! نخصم من الأربعة عشرة ثلاثة. الباقي أحد عشر.. ها هي نقودك يا عزيزتي! ثلاثة.. ثلاثة.. ثلاثة.. واحد، واحد.. تفضلي!

ومددت لها أحد عشر روبلاً.. فتناولتها ووضعتها في جيبها بأصابع مرتشة.. وهمست:

- شكراً.

فانتفضت واقفاً وأخذت أروح وأجيء في الغرفة. واستولى عليَّ الغضب. فسألتها:

- شكراً على ماذا؟

- على النقود..

- يا للشيطان، ولكني نهبتك، سلبتك! لقد سرقت منك! فعلام تقولين شكراً؟!

- في أماكن أخرى لم يعطوني شيئاً.

- لم يعطوك؟! ليس هذا غريباً! لقد مزحت معك، لقّنتك درساً قاسياً.. سأعطيك نقودك، الثمانين روبلاً كلها! ها هي في المظروف جهزتها لك! ولكن هل يمكن أن تكوني عاجزة إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا تحتجين؟ لماذا تسكتين؟ هل يمكن في هذه الدنيا ألا تكوني حادة الأنياب؟ هل يمكن أن تكوني مغفلة إلى هذه الدرجة؟

ابتسمت في عجز، فقرأت على وجهها: يمكن!

سألتُها الصفحَ عن هذا الدرس القاسي، وسلمتها، لدهشتها البالغة، الثمانين روبلاً كلَّها. فشكرتني بخجل وخرجت.. وتطلعت في أثرها وفكرت:

ما أسهل أن تكون قويًّا في هذه الدنيا!

III

عنبر 6

(1)

هناك في فناء المستشفى بناء صغير محاط بغابة من الأرقطيون وحشائش القريص والقُنَّب البري وغيره من الشجيرات الشائكة.

سقفه صَدِيء ومدخنته تهدَّمت إلى نصفها، ودرجات مدخله الخشبية متآكلة، يغطيها العشب، ولم يبق من طلاء البناء القديم غير آثار.

وتطل واجهة المبنى الأمامية على المستشفى. أما واجهته الخلفية فتطل على حقل يفصلها عنه سور المستشفى الرمادي ذو المسامير المدببة. وهذه المسامير المدببة، والسور، والبناء نفسه، تبدو على تلك الصورة الخاصة الموحشة اللعينة التي لا تجدها عندنا إلا في مباني المستشفيات والسجون.

وإذا لم تكن تخشى الأشواك. فهيا معي خلال هذا الطريق الذي يؤدي إلى البناء الصغير.. أو عنبر 6.. لكي نلقي بداخله نظرة عابرة.

فإذا ما فتحنا الباب وجدنا أنفسنا في أحد الممرات؛ وقابلنا تلالاً من كُهنة المستشفى مكدسة بحذاء الحوائط وإلى جانب الموقد. ورأينا

هذه التوافه البالية والحثالة التي لا جدوى لها، والمعاطف العتيقة والسراويل الداخلية والجلابيب الزرقاء المخططة والأحذية البالية الممزقة متراكمة بعضها فوق بعض في أكوام رائحتها تزكم الأنوف.

وعلى قمة هذه النفايات يتربع الحارس نيكيتا، وهو جندي قديم يحمل على أكمام جاكتته بعض الأشرطة التي تعفنت بفعل الزمن، وهو لا يُرى إلا وبين شفتيه غليون، ويُضفي عليه حاجباه الثقيلان ووجهه القذر المحروق من كثرة الشراب سيماء كلاب الرعي الروسية.

وهو أحمر الأنف، نحيل الجسم، قصير القامة، عصبي المزاج. ولكنه مع ذلك ضخم الكفين وفي سلوكه شيء من التعاظم، مما يجعله أحد أولئك الأشخاص الجديرين بالثقة، المحبين للسلطة. والذين يتسمون بضيق الأفق وظلام العقل. ويضعون النظام فوق كل شيء في هذا العالم. ويعتقدون أن الضرب أنجح وأفضل الوسائل. فنراه يصب ضرباته دون حساب أو تمييز على الوجه والصدر والظهر، مقتنعاً بأن ذلك هو السبيل الوحيد لحفظ النظام.

بعد الممر ندخل غرفة فسيحة تشغل فراغ المبنى كله باستثناء الرقعة التي يشغلها الممر. حوائط هذه الغرفة مدهون باللون الأرق الترابي، أما السقف فقد اسودَّ لونه من تأثير السناج حتى أصبح شبيهاً بسقوف الأكواخ القديمة المرصعة بعروق الخشب، وليس بالغرفة مدخنة مما يشير إلى أن المواقد تملؤها بدخانها السام في

فصل الشتاء. وشبابيكها قبيحة الشكل يعترضها من الداخل إطار من القضبان الحديدية المتقاطعة، وأرضها جرداء اللون متعفنة، والمكان كله تفرح منه رائحة الكرنب المختمر ودخان المصابيح والبق وحامض النوشادر، حتى ليخيل لداخله أنه يدخل إحدى حظائر الماشية.

وتتناثر على أرض الغرفة الفُرُشُ التي يجلس أو يضطجع عليها رجال يرتدون جلاليب زرقاء ويضعون فوق رءوسهم طاقيات من نفس قماش ولون الجلاليب. إنهم مرضى الأمراض العقلية أو نزلاء عنبر 6.

هناك خمسة منهم، أحدهم فقط ينتمي إلى الطبقات العليا، والآخرون كلهم من عامة الشعب. على الفراش الذي يجاور الباب مباشرة يجلس رجل طويل القامة ونحيل، يعتمد برأسه على قبضتي يديه ويحملق أمامه دون انقطاع. وهو يبدو في حالة انقباض دائم ولا يكف ليله ونهاره من الإيماء برأسه أو إصدار ابتسامة عوجاء من حين لحين. وقلما نراه يشارك زملاءه أحاديثهم، كما أنه لا يرد على سؤال يوجه إليه إلا في القليل النادر. ومن عادته أن يتناول طعامه وشرابه بصورة آلية متى قُدِّم إليه. ويبدو من سعاله العسير الذي لا يكاد ينقطع ومن العرق الذي يجري على خديه باستمرار أنه مصاب بالسل في أولى درجاته.

والفراش التالي يشغله رجل هرم قصير القامة متدفق الحيوية خفيف الحركة، تكسو ذقنه لحية صغيرة مدببة، ويغطي رأسه شعر

أسود متجعد كشعر الزنوج.

وهو يقضي نهاره في التنقل في الغرفة من شباك إلى شباك، أو يجلس القرفصاء على فراشه، وفي الصفير الذي ينافس صفير الصعو حدة وانتظاماً، أو في الغناء بصوت خافت، أو في مجرد الضحك الهادئ المكبوت حتى إن ظلام الليل وسكونه لا يمنعانه من إظهار مرحه الصبياني ونشاطه الفيَّاض، فيُرى ينهض من فراشه لكي يؤدي صلواته بأن ينهال على صدره ضرباً باللكمات ، أو لكي يتحسس الأبواب ويرجها. هذا المريض هو موسى صانع القبعات اليهودي الذي أصيب بالجنون على إثر التهام النار دكانه منذ عشرين عاماً.

وموسى هذا هو الوحيد من بين سكان عنبر 6 الذي يسمح له بمغادرة المبنى، بل بالتجول في فناء المستشفى والتسرُّب إلى الشارع. وقد حصل على هذا الامتياز منذ سنين، وربما كان الفضل في ذلك يرجع إلى طول مقامه بالمستشفى. هذا إلى أن منظر مثل هذا المجنون الهادئ الوديع الذي يُعرف بمعتوه المدينة ويطوف بشوارعها محاطاً بجمهور كبير من صغار الأطفال والكلاب يعتبر من مناظر الحياة اليومية المألوفة، ولذا يُرى موسى يجوب الشوارع أيضاً بجلباب المستشفى وطاقيته المضحكة ونعله الممزق، وفي بعض الأحيان حافي القدمين عاري الجسم إلا من الجلباب، ويتوقف أمام أبواب المنازل والدكاكين الصغيرة ليستجدي كوبيكاً. وهو يحصل على قليل من الجيلاتي في هذا المكان أو على كسرة خبز في ذاك.

ثم يعود إلى العنبر موفور الرزق مسروراً. ولكن ما يحضره معه كله يستولى عليه نيكيتا. وكان ذلك الجندي القديم يفعل هذا بطريقة فظة مثيرة، حيث يقلِّب جيوب موسى ويجردها من كل ما فيها وهو يسب ويلعن ويشهد الله على أنه لن يسمح لليهودي بالخروج إلى الشارع بعد اليوم، وأنه لا شيء في العالم أسوأ من الفوضى.

وموسى رجل خدوم، فهو الذي يحضر الماء لرفاقه في العنبر إذا كانوا عطاشاً، ويغطي أجسامهم إذا كانوا نياماً، ويعدهم بإعطاء كل منهم كوبيك وبأن يصنع لهم طواقيَ جديدة. وهو الذي يطعم جاره من ناحية اليسار لأنه مشلول. ولكنه لا يفعل ذلك من باب الرحمة أو أي باعث إنسانيٍّ آخر، بل تمثلاً بجروموف جاره من ناحية اليمين وخضوعاً غير إرادي لتأثيره عليه.

وإيفان دمترتش جرووف شاب في الثالثة والثلاثين من عمره، ينحدر من أسرة طيبة، كان يعمل فيما مضى محضراً لمحكمة، ثم أصيب بحنون الشعور بالاضطهاد.

وهو يقضي وقته إما في الاضطجاع مكور الجسم على فرشه، وإما في ذرع أرض العنبر أماماً وخلفاً، كما لو كان يقوم بتمرين رياضي، وقلما يُرى جالساً، ويُرى دائماً في حالة اضطراب وبلبلة، ويبدو متوتر الأعصاب من جراء انتظاره وقوع أمور غامضة ومبهمة. ولذا لا يكاد يسمع حركة في الممر أو ضوضاء في الفناء حتى يرفع رأسه ويرهف سمعه للإنصات؛ تُرى هل جاءوا من أجله؟ وهل هو الذي يبحثون عنه. وفي مثل هذه

اللحظات تظهر على وجهه أمارات الاختلال والاشمئزاز الشديدين.

إني أحب وجهه العريض الشاحب التعس بوجنتيه البارزتين، ذلك الوجه الذي يعكس نفساً أضناها الصراع والخوف المستمران. ولا تخلو تقلصات وجهه العارضة من غرابة وشذوذ. ولكن الخطوط الدقيقة التي رسمها الألم العميق الأصيل على هذا الوجه تدل على شدة الحساسية وحدة الذكاء. أما عيناه فينبعث منهما شعاع دافئ سلمي. إني أحب هذا الرجل لأنه مهذب دائماً، رحيم دائماً، مبجل من الجميع باستثناء نيكيتا.

فإذا سقط زرار أو ملعقة أو شيء آخر من شخص ما، هبّ من فراشه والتقطه ليرده إلى صاحبه. وإذا استيقظ من نومه ألقى على زملائه تحية الصباح، وإذا آوى إلى فراشه، تمنى لهم ليلة سعيدة.

ويتمثل مرض جروموف، إلى جانب التقلصات والكبت الدائم الذي يرزح تحته في هذه الأمور. يُرى أحياناً في بعض الأمسيات وقد شد جلبابه حول جسمه، وجعلت أسنانه تصطك وجسمه يرتجف، وراح يمشي بخطى سريعة في أنحاء الغرفة وبين الفُرش. وهو في هذه الحال يشبه شخصاً انتابه نوبة من الحمى العنيفة. ويبدو من طريقته في التوقف والنظر إلى رفاقه في العنبر أن لديه أمراً خطيراً يريد أن يفضي إليهم به، ولكنه لا يلبث أن يدرك أنه لن يصغى إليه أحد، ولن يفهمه أحد.

فيهز رأسه في قلق ويستأنف سيره.

ومع ذلك سرعان ما تتغلب عليه الرغبة في الكلام على كل اعتبار آخر، فيرخى لنفسه العنان ليندفع في إفاضات حماسية جادة. وليس من الممكن دائماً فهم كلامه العنيف المتفكِّك، ولكن كلماته ونبراته تدعو السامع إلى الانتباه. وإذا تكلم، استطعت أن تسمع في كلامه الشخص السليم والمجنون في آن واحد. ولا شك أنه من العسير أن تسجل هذيانه العنيف على ورقة بقلم تمسكه في يدك، وهو يتحدث عن الطغيان الذي يطمس الحقيقة في الحياة البشرية، أو عن قضبان الشبابيك الحديدية التي تذكره دائماً بغباء الطغاة وقسوتهم، فينتج عن كل ذلك خليط متنافر غير متقَن من الأناشيد أو الأغاني التي وإن كانت قديمة، إلا أنها لم تُنشد حتى الآن إلى نهايتها.

III
(2)

منذ حوالي اثنتى عشرة سنة أو خمس عشرة سنة كان موظف ما اسمه جروموف يقيم في بيت يملكه بالشارع الرئيسي بالمدينة. وكان رجلاً دءوباً متقناً لعمله. وقد ولد له ولدان: سرجي وإيفان. أما سرجي فقد مات بسل خاطف بعد أن قطع ثلاثة أعوام من دراسته الجامعية. وكان هذا الموت بداية لسلسلة من الكوارث التي حلَّت بأسرة جروموف. فلم يمض أسبوع واحد على تشييع جنازة سرجي، حتى قبض على الرجل الهرم بتهمة التزوير والاختلاس، وقد مات في مستشفى السجن بمرض التيفود، بعد القبض عليه بمدة وجيزة. وبيع بيته وضيعته في المزاد العلني، وبقى إيفان دميترتش ووالدته دون مورد رزق.

وكان إيفان دميترتش في حياة والده يعيش في بطرسبورج ليواصل دراسته الجامعية، ويتلقى من بيته ستين أو سبعين روبلاً في الشهر، وبذلك لم يعرف معنى الحاجة، ولكنه اضطر الآن إلى إجراء تغييرات جوهرية في أسلوب حياته. فكان عليه أن يعمل من الصباح إلى المساء في إعطاء الدروس الخاصة مقابل أجر زهيد، وكان يقوم بنسخ الوثائق. ولكن ذلك لم يرد عنه غائلة الجوع. لأنه كان يرسل كل ما يربحه إلى والدته. ولم يكن إيفان دميترتش مؤهلاً لهذا النوع من الحياة، فسرعان ما انتابه اليأس وحلت به

الأمراض وترك الجامعة ورحل إلى بيته. وهناك في تلك المدينة الصغيرة استطاع أن يُعيَّن معلماً في مدرسة الإقليم بفضل بعض ذوي النفوذ من الأصدقاء. ولكنه وجد نفسه عاجزاً عن الامتزاج بزملائه أو كسب عطف تلاميذه، فاستقال من منصبه. وماتت أمه، وظل دون عمل نحو ستة أشهر لم يطعم فيها غير الخبز والماء. وحينئذ حصل على منصب حاجب المحكمة الذي احتفظ به حتى أقيل منه لأسباب صحية.

ولم يكن إيفان قوي البنيان في يوم من الأيام، حتى في عهد التلمذة وإنما كان على الدوام شاحباً نحيلاً، كثير التعرض لنزلات البرد، يأكل قليلاً ولا ينام جيداً.

وكانت الكأس الواحدة من النبيذ تثمله وتصيبه بالهذيان. وكان يود الاختلاط بزملائه من بني البشر، ولكن شدة تأثره وانطباعه على الارتياب في الناس كانا يحولان بينه وبين عقد صلات وثيقة مع أي واحد منهم، ومن ثم لم يكن يرى أن له صديقاً بمعنى الكلمة.

فكان ينظر إلى أهل المدن باشمئزاز، ويصرِّح بأن جهلهم الصارخ وحياتهم الحيوانية الخاملة يصيبانه بالأوجاع.. وكان حاد الصوت. يتكلم بحرارة وصوت عالٍ.

ولا يتكلم إلا ليعبر عن حنق واستهجان أو تحمس وإعجاب. ولكن دائماً في نبرات تدل على الصدق والإيمان بما يقول. وكنت إذا كلمته في أي أمر. عمل دائماً على تحويل الحديث إلى موضوعه

المفضل، وهو أن جو مدينتا خانق والحياة فيها حمقاء، والمجتمع خال من الأهداف السامية يحيا حياة نكداء لا معنى لها، ولا يبهجه غير العنف والفسق الكريه والنفاق:

فالأوغاد في رغد من العيش والشرفاء من أيديهم إلى أفواههم. ويقرر أن ما نحتاج إليه إنما هو المدارس والصحافة المحلية التقدمية والمسرح والمحاضرات العامة والتعاون بين القوى المفكرة جميعها، ويجب السعي إلى جعل المجتمع على بينة من كل هذا وإطلاعه على مدى ما فيه من شناعة، أما في تصويره لمعاصريه، فإنه لم يكن يقتصد في الأصباغ، ولكن صندوق ألوانه لم يكن يحتوي على غير الأبيض والأسود، ولا يعرف الظلال الخفيفة، فالناس عنده إما أوغاد وإما شرفاء ولا وسط بينهما. وكان يتكلم عن البُسطاء وعن الحب بأحر أنواع الحماس، وإن لم يذق هو نفسه طعم الحب قط.

وكان بالرغم من شدة حماسته وسرعة ثوران أعصابه محبوباً في مدينته لا يتكلم أحد من وراء ظهره إلا بكل عطف وتقدير، كما كانت الحال بالنسبة لفانيا. وكانت رقته واستعداده لمساعدة أي إنسان، ومبادئه السامية، طهارته الخلقية، إضافة إلى جاكتته المتهدلة ومظهره السقيم والنكبات التي حلّت بأسرته، كان كل ذلك من شأنه أن يخلق حوله شعوراً حارًّا من الحنان الممزوج بالحزن، هذا إلى أنه كان ناضج التعليم واسع المعرفة حتى إن مواطنيه كانوا يقولون إنه ليس في هذا العالم شيء لم يعرفه، وينظرون إليه على أنه دائرة معارف متحركة.

وكان كثير القراءة، حتى إنه كان يجلس ساعات طويلة في النادي دون أن يشغله شيء غير جذب لحيته الصغيرة وتقليب صفحات المجلات والكتب، وكان يبدو في وجهه أنه يلتهم محتوياتها التهاماً أكثر مما يقرؤها قراءة، لأنه لم يكن يدع لعقله من الوقت ما يكفي لتمثيلها إلا بكل عسر. فمن الواضح أن القراءة كانت قد أصبحت عنده عادة مرضية. لأنه كان يتهافت. على أي شيء يقع في طريقه بدرجة واحدة من الشراهة. ولو لم يكن هذا الشيء أكثر إمتاعاً من صحف السنة الماضية أو دليل التليفون. وكان يشغل الوقت الذي يقضيه في البيت بالقراءة وهو مضطجع.

III

(3)

وفي صباح يوم من أيام الخريف، كان إيفان دميترتش يسير بياقة جاكتته مقلوبة، في طين بعض الحارات، لكي يسلم أحد المواطنين خطاباً يحتوي على أمر تنفيذ ما. وكان منحرف المزاج في هذه اللحظة على عادته في صباح معظم الأيام. وفي إحدى هذه الحارات التقى بشخصين مكبلين بالسلاسل ويسيران في حراسة أربعة جنود مسلحين. وكان إيفان دميترتش معتاداً على هذه المناظر التي تثير في نفسه دائماً شعور الإشفاق والحيرة، ولكنه في هذه المرة شعر بصدمة غريبة لم يألفها من قبل. إذ أنه أحس فجأة لسبب ما، أنه ليس هناك ما يعصمه هو نفسه من أن يكبل على هذا النحو ويساق خلال الحارات الموحلة إلى ظلمات السجن. وبعد أن سلم الخطاب، التقى في طريق عودته بأحد مفتشي البريد من معارفه واقفاً بجانب مكتب البريد. وبعد أن تبادلا التحيات، سار معه هذا الأخير بضع خطوات. وقد أدى هذا السلوك من جانب المفتش إلى ارتياب إيفان دميترتش بصورة ما، وحين رجع إلى البيت عاودته صورة السجينين والجنود بأسلحتهم، ولم تغادر خاطره طوال اليوم وانتابه قلق عقلي غريب منعه من القراءة ومن تركيز أفكاره، ولما أقبل المساء لم يوقد مصباحه ولم يستطع النوم؛ لأن فكرة القبض عليه هو الآخر وتكبيله والزج به في السجن كانت تسد عليه كل المنافذ. نعم إنه كان يعلم تمام العلم أنه لم

يرتكب جُرماً، وأنه يستطيع أن يؤكد أنه لن يقتل ولن يحتال ولن يسرق، ولكن هل من المستحيل أن يرتكب جريمة ما عن طريق الصدفة ودون أن يتعمد ارتكابها؟ وهل هناك ما هو أقرب إلى الاحتمال من انحراف العدالة في الظروف التي عليها حالة التحقيقات والإجراءات في الوقت الراهن؟

إن هؤلاء الناس الذين هم من قبيل القضاة والبوليس والأطباء، يفقدون حساسيتهم بمضي الزمن وبحكم العادة - وينظرون إلى الآلام البشرية من وجهة نظر رسمية بحتة. ولذلك لا نراهم يستطيعون معاملة عملائهم إلا من ناحية الاعتبارات الشكلية. حتى لو أرادوا عكس ذلك فهم من هذه الناحية لا يختلفون في شيء عن الفلاح الذي يذبح الغنم والعجول في فناء بيته غير عابئ بمنظر الدماء المراقة. وما دام القاضي قد اعتاد هذا السلوك الشكلي الخالي من الحساسية، فإنه ليس في حاجة إلا لشيء واحد فقط لكي يجرد البريء من حقوقه، ويحكم عليه بالأشغال الشاقة، هذا الشيء هو الزمن، الزمن الضروري لملاحظة بعض الشكليات التي من أجلها يتقاضى القاضي مرتبه. وهذا كل ما في الأمر. هذا إلى أنه من العبث أن نبحث عن العدالة والحماية في مدينة صغيرة قذرة تبعد مائتي فرسخ عن أقرب محطة للسكة الحديد. ثم أليس من الحمق أن نطلب العدالة في مجتمع يعتبر الطغيان فيه من الأمور التي يقبلها العقل، ووسيلة من وسائل الحياة. ويقابل كل فعل من أفعال الرحمة، كتبرئة البريء مثلاً، بصيحات السخط والاستنكار وحب الانتقام؟

استيقظ إيفان دميترتش في صباح اليوم التالي في حالة رعب شنيع والعرق البارد يتصبب من حاجبيه، وكله اقتناع بأنه سيُلقَى القبض عليه في أية دقيقة. ولما كانت أفكار الطغيان التي راودته في اليوم السابق، لم تفارقه في هذا اليوم، فقد ظن في نفسه أنها لابد أن تكون قائمة على أساس. وإلا فهل من المعقول أن تتمكن منه دون سبب وجيه؟ وقد مر تحت شباكه أحد رجال البوليس بخطى وئيدة، فما معنى هذا؟ وحدث أن وقف رجلان أمام بيته، وبقيا صامتين، فلماذا ظلا صامتين؟

وتعاقبت على إيفان دميترتش الأيام والليالي مشحونة بالقلق. فكان يظن كل من يمر أمام شباكه أو يدخل فناء بيته جاسوساً أو مخبراً. وكان من عادة المفتش العام لبوليس الإقليم أن يمر في ساعة الظهيرة من كل يوم في الشارع بعربته ذات الجوادين قادماً من عزبته الريفية إلى مكتبه. ولكن كان يبدو لإيفان دميترتش أنه يسير بسرعة شديدة، وأنه يرى في عينيه نظرة لها مغزاها. فلعله يسارع لكي يعلن عن وجود مجرم خطير يقطن المدينة.

وأصبح إيفان دميترتش يهب مذعوراً كلما دقَّ جرس الباب، أو سمع طرقاً على باب المنزل الخارجي. وإذا زار صاحبة المنزل ضيف لم يكن قد رآه من قبل، شعر بكثير من القلق. وإذا قابل شرطيًّا أو خفيراً تكلّف الابتسام وصفر بنغمة ما، ليظهر بمظهر المطمئن. وكان يقضي الليل مستيقظاً خوفاً من القبض عليه ولكنه كان يشخّر ويتنفس بصوت مسموع حتى يوهم ربة المنزل أنه نائم. إذا لو عُلِمَ أنه لا ينام لظنت أن هناك أمراً يقلق باله؛ وفي هذه

الحال يا لها من كارثة!

كانت الوقائع والتفكير السليم يؤكد له أن مخاوفه ليست إلا أوهاماً خبيثة. وأنه ليس في القبض أو السجن ما يرهب المرء إلى هذا الحد، ما دام مستريح الضمير.

ولكنه كان كلما اتجه تفكيره نحو المنطق والاتزان تعاظم قلقه وازدادت حدته. فكان كالناسك الذي حاول أن يخلي لنفسه مكاناً في وسط الغابة. ولكنه وجد أن الأدغال والأشجار تزداد كثافة ونمواً تحت ضربات فأسه. ولما رأى إيفان دميترتش عدم جدوى التفكير، تخلى عنه واستسلم لليأس والمخاوف.

وبدأ يبحث عن العزلة والفرار من المجتمع، وقد كان من قبل يبغض العمل الذي يقوم به، ولكنه أصبح الآن حملاً لا يطاق بالنسبة إليه!

إذا صار يخشى أن يدبر له أحد مكيدة فيدس له رشوة في جيبه مثلاً دون علم منه، أو أن تقع منه غلطة تحسب على أنها تزوير في أوراق رسمية، أو أن يفقد بعض النقود التي لا يملكها، ومن الغريب أن عقله أصبح الآن على درجة كبيرة من الحذق والمهارة في اختراع الأسباب التي تجعله يرتجف خوفاً على شرفه وحريته. ومن جهة أخرى ضعف اهتمامه بالعالم الخارجي وبالقراءة، وانهارت ذاكرته إلى أقصى حد.

وبعد أن ذابت الثلوج في فصل الربيع أمكن العثور على جثتين لامرأة وغلام صغير في الخندق المجاور للمقبرة العامة. وكانت كلتا الجثتين في حالة تعفن شديد وتحملان آثار الموت العنيف.

وأصبحت المدينة بأسرها لا تتكلم إلا عن هاتين الجثتين والقتلة المجهولين. وأراد إيفان دميترتش أن يمنع الناس من الظن بأنه هو القاتل، فراح يطوف بشوارع المدينة وعلى وجهه ابتسامة ما، وكلما قابل أحداً من معارفه أخذ يؤكد له، والشحوب وحمرة الخجل يتعاقبان على وجهه؛ بأنه لا شيء في الوجود أحط من جريمة قتل الضعيف ومن لا يملك عن نفسه دفاعاً. ولكنه لم يلبث أن ملّ طول المراءاة، وقرر أن خير وسيلة يتبعها من كان في وضعه هي أن يختفي في إحدى المغارات. فقضى في المغارة نهاراً كاملاً ثم الليلة التي تلته وانهار في الذي أعقبها حتي تجمَّد جسمه من البرد، فاضطر إلى أن يزحف متسللاً إلى غرفته كاللص في ظلام الليل، ووقف في وسط غرفته ساكناً مرهفاً أذنه للإنصات حتى مطلع النهار. وقبيل طلوع النهار بقليل وفد على ربة البيت بعض صانعي المواقد. وكان إيفان دميترتش يعلم تمام العلم أنهم جاءوا لإصلاح موقد المطبخ، ولكن الخوف وسوس له أنهم رجال شرطة متنكرين في ملابس صانعي المواقد. فزحف خارجاً من البيت خلسةً دون أن يجعل أحداً يلاحظه. ثم انطلق يعدو في الشارع وهو في أشد حالات الذعر والاضطراب، وانطلقت الكلاب تعدو من خلفه وهي تنبح، ولمحه رجل فصاح يناديه، وصارت الريح تصفّر في أذنيه، وخيل إليه أن كل ما احتوته الدنيا من عنف قد تجمع خلف ظهره

وراح يطارده.

واستطاع بعض الناس أن يوقفوه ويرجعوا به إلى البيت، وأرسلت ربة البيت التي يعيش معها في استدعاء الطبيب.

وجاء الدكتور أندريه بيفيمتش الذي سنضطر إلى الإسهاب في الكلام عنه فيما بعد - فوضع له كمادات باردة، وأعطاه نقطاً من دهن نبات الغار، ثم هز رأسه في حزن وانصرف بعد أن أخبر ربة البيت بأنه لن يكرر المجيء، لأنه ليس من الخير أن يمنع الناس من الجنون!. ولما كان إيفان دميترتش لا يملك من المال ما يساعده على العيش ودفع نفقات العلاج، فقد أُرسل إلى المستشفى حيث هيئ له مكان في جناح المرضى بأمراض تناسلية، ولكنه كان في حالة هياج دائم لا ينام الليل، ويقلق راحة المرضى الآخرين، فنقل على الفور إلى العنبر رقم 6 بناءً على أوامر الدكتور أندريه بيفتمتش.

ولم يمر عام واحد حتى كان الناس جميعاً قد نسوا إيفان دميترتش. أما كتبه ومجلاته التي ألقت بها ربة البيت في مخزن تحت السلم، فقد استولى عليها أطفال المساكن والبيوت المجاورة.

III
(4)

كان جاره الأيسر موسى اليهودي كما سبق أن قلنا، أما جاره الأيمن فكان فلاحاً متكوراً متورماً، ذا وجه أبيض ناصع لا يوحي بشيء مطلقاً، بل كان نوعاً من الحيوان الكسول البطين القذر الذي نسى منذ زمن طويل شيئاً اسمه التفكير أو الشعور، وكانت تنبعث منه رائحة حادة خانقة!!

واعتاد نيكيتا الذي كان من واجبه أن يعني بهذا الرجل، أن يضربه ضرباً وحشيًّا بكل قوته ودون إشفاق. ولم يكن هذا الضرب هو ما يدعو إلى الاشمئزاز، إذ من السهل أن يتعود المرء على رؤية ذلك. ولكن ما كان يدعو إلى الاشمئزاز حقًّا هو أنه لم يكن لهذا الحيوان المتبلد أي رد فعل على تلك الهجمات، لا بالصوت ولا بالإشارة ولا حتى بطرفة العين، بل كان يتأرجح من ناحية إلى أخرى كالدن الثقيل.

أما الساكن الخامس والأخير للعنبر رقم 6، فشخص من سكان المدن كان فيما سبق يعمل مصنف خطابات في أحد مكاتب البريد. وكان يبدو من تلك النظرة الصافية المرحة التي تنبعث من عينيه الذكيتين أنه يعرف كيف يُعني بنفسه، وأنه يحتفظ بسر مهم بهيج.

ونسمعه في بعض الأحيان يقول لإيفان دميترتش:

- يمكنك أن تهنئني، فقد اقتُرح اسمي لنيل نيشان ستانسلاس ذي النجمة من الدرجة الثانية. إن نيشان الدرجة الثانية ذا النجمة يُمنح عادة للأجانب. ولكنهم، لسبب ما، يريدون إجراء استثناء من أجلي.

ثم يضيف قائلاً مع ابتسامة من فمه وهزة من كتفيه:

- ولكن يجب أن أقول إني لم أكن أتوقع ذلك قط.

ويرد عليه إيفان دميترتش في شيء من الاكتئاب:

- أنا لا أعرف شيئاً من هذه المسائل.

ولكن مصنّف الخطابات القديم يزر عينيه في خبث ويواصل كلامه قائلاً:

- ولكن هل تدري ما أريد أنا الحصول عليه إن عاجلاً أو آجلاً؟

أنا واثق من أني سأحصل على «النجم القطبي» السويدي. ومثل هذا النيشان يستحق أن يتحمل المرء من أجله بعض المشقة، إنه صليب أبيض وشريط أسود.. في غاية الجمال.

ولعل الحياة في العنبر أشد رتابة منها في أي مكان آخر، ففي الصباح يذهب الجميع إلى الممر. ما عدا المشلول والفلاح البدين، لكي يغتسلوا في جابية خشبية كبيرة، ثم يجففون وجوههم في ذيول جلالبيبهم، وبعد ذلك يتناولون الشاي «في كيزان» من الصفيح

يحضرها لهم نيكيتا من المبنى الرئيسي، لكل منهم «كوز». وفي ساعة الظهيرة يتناولون حساءً مكوناً من الكرنب المختمر والعصيدة أما العشاء فيتكون من العصيدة الباقية من الغذاء. وفيما بين الوجبات يضطجعون على فراشهم أو ينامون أو ينظرون من الشبابيك أو يذرعون أرض العنبر ذهاباً وإياباً..هكذا تسير حياتهم طول الأيام، وحتى مصنف الخطابات القديم، فإنه يتكلم كل يوم عن النياشين نفسها.

ولا يكاد يُرى وجه جديد في العنبر 6، فقد أوقف الطبيب منذ زمن طويل قبول حالات عقلية جديدة، كما أنه لم يكن يعني بزيارة عنبر المجانين إلا قليل من الناس.

ويزور العنبر سيمون لازارتش الحلاق مرة كل شهرين. ولن نصف كيف يقص سيمون شعر المرضى ولا كيف يساعده نيكيتا في ذلك، ولا نوبة الذعر والاضطراب التي تستولي على المرضى لدى رؤيتهم الحلاق الثمل المبتسم.

وغير الحلاق، لا أحد يزور العنبر، ومن ثم يتحتم على المرضى أن يمتثلوا لصحبة نيكيتا الأبدية.. ولكن هناك إشاعة غريبة بدأت تسري في المستشفى وتقول: إن الطبيب سيبدأ في زيارة العنبر رقم 6 بانتظام.

III

(5)

هذه إشاعة غريبة حقًّا!

فالدكتور أندريه بيفيمتش رجل فريد في نوعه. ويقال إنه كان شديد التدين في شبابه. وأن قلبه كان يهفو إلى الانخراط في السلك اللاهوتي. واعتزم الالتحاق بالمعهد اللاهوتي بعد تخرجه من المدرسة العليا سنة 1863، لولا أن والده الذي كان جراحاً ويمارس مهنة الطب، سخر منه وأعلن أنه سيتبرأ منه إذا صار قسيساً. ولست أدري مبلغ ما في هذا القول من صدق، ولكني كثيراً ما سمعت أندريه بيفيمتش يعترف بأنه لم يشعر في يوم من الأيام بأن لديه استعداداً للطب أو لأي فرع آخر من فروع العلم.

ومهما يكن من شيء، فإنه لم ينضم إلى أية هيئة من هيئات اللاهوت بعد حصوله على إجازة الطب. ولم يكن في بداية حياته الطبية أكثر تديناً ولا أقرب شبهاً برجال اللاهوت مما هو الآن.

وهو يمثل الفلاح الثقيل الجاف، أما وجهه ولحيته وشعره المستقيم وهيكله القوي الكريه، فيوحي بأنه صاحب مقهى على جانب أحد الطرق. وأنه شخص أكول فظ عنيد الطباع.. وهو ذو وجه تغطيه شبكة من العروق الزرقاء، وعينين صغيرتين وأنف أحمر، عريض القامة، عريض ما بين المنكبين، ضخم اليدين والقدمين.

ويبدو كما لو كان في مقدوره أن يصرع ثوراً بضربة من لكمتيه. ولكنه يمشي الهوينى، وفي مشيته حذر وتوجس، إذا قابل أي شخص في ممر ضيق بادر بالوقوف جانباً وإفساح الطريق وقال: آسف ولا يقولها بصوت عميق كما قد يتوقع، بل بنغمة جشّاء لطيفة.

وفي عنقه كيس دهني صغير يمنعه من لبس الياقات (المنشّاة)، ولذا لا يستعمل غير الأقمشة الكتانية أو القطنية الخفيفة. فهو لا يشبه الأطباء في لباسهم بأية حال، وتعيش البدلة عنده عشر سنوات. وإذا احتاج إلى بدلة جديدة اشتراها من دكان للبضائع يملكه يهودي، يبيع ملابس مستعملة، وهو يستقبل مرضاه ويزور أصدقاءه ويجلس على موائدهم بالملبس نفسه، وليس مرجع ذلك إلى الشح ولا إلى أي شيء آخر غير عدم الاهتمام بمظهره الشخصي.

وحينما قدم أندريه بيفيمتش إلى مدينتنا لتسلم منصبه، كانت «مؤسسة البر» في حالة تشمئز منها النفوس.. ولم يكن في الإمكان أن يتنفس المرء في أجنحة المستشفى أو ممراته أو فنائه إلا بكل صعوبة بسبب رائحة النتن التي تفوح في كل مكان فيه..!

وكان ممرضو المستشفى وممرضاته وأسرهم ينامون في أجنحته بجانب المرضى. وكان كل شخص فيه يشكو من أن الخنافس والبق والقمل قد جعلت الحياة بداخله من أصعب الأمور. وكان قسم الجراحة لا يخلو مطلقاً من مرضى الحمرة. ولم يكن في المستشفى

كله إلا سماعتان، كما لم يكن به مقياس حرارة واحد.

وأما (طسوت) الحمام فكانت تستخدم في تخزين البطاطس. وكان المعاون والمشرفة والمساعد الطبي يسرقون طعام المرضى. كما أشيع أن الطبيب العجوز الذي شغل المنصب قبل أندريه بيفيمتش كان يتجر في المشروبات الكحولية التي تصرف للمستشفى، ويحتفظ بحريم حقيقي اختاره من بين الممرضات والمريضات. وكان سكان المدينة على بينة من سوء هذه الأمور، بل كانوا يبالغون في وصفه. ولكن لم يتأت لأحد منهم أن يأخذ الأمور مأخذ الجد. فكان البعض يعتذر له بأنه لا يعالج في المستشفى إلا الفلاحون والطبقات الدنيا، وأنه لا يصح لهؤلاء أن يشكوا من شيء ما دامت حالهم في بيوتهم أسوأ منها في المستشفى ، فهل يراد من المستشفى، أن يجعل طعامهم من الديك الرومي والحمام؟. وكان البعض الآخر يرى أنه لا يمكن أن يكون للمدينة مستشفى لائق دون مساعدة من مجلس الإقليم، وأنه يجب علينا أن نحمد الله على مجرد وجود مستشفى مهما كان سيئاً. أما مجلس الإقليم الذي لم يفتح أبوابه هو الآخر إلا لفترة وجيزة، فلم يحاول أن ينشئ لحسابه مستشفى في المدينة أو في أحد البلاد المحيطة بها بحجة أن هناك مستشفى موجوداً بالفعل.

وقد أدت أول حملة تفتيشية قام بها أندريه بيفميتش في المستشفى إلى الاعتقاد الجازم بأنها مؤسسة منافية للأخلاق وهادمة لصحة المجموع. كان أحكم الحلول في رأيه ينحصر في صرف المرضى وإغلاق المستشفى، ولكنه عاد ففكر بأن تنفيذ هذا الحل يحتاج إلى

سلطة أخرى فوق سلطته، وأنه غير مجد على أية حال، وذلك أن المرء إذا أزاح القذارة المادية والخلقية من مكان ما. فلابد أن تتجمع بطبيعة الحال في مكان آخر، ولذا يجب الانتظار حتى تختفى من تلقاء نفسها. هذا إلى أنه ما دام الناس قد أقاموا مستشفى واضطلعوا بأعبائه، فمعنى ذلك أنهم بحاجة إليه، أما الجهل وسوء الحكم وهذه القاذورات والأدران اليومية جميعها فإنها أمور ضرورية، لأنها ستتحول إلى أشياء نافعة في يوم من الأيام كما يتحول الروث إلى مادة مخصّبة للتربة، فليس هناك شيء صالح في هذا العالم إلا وينبثق في أصله من منبت قذر.

ويبدو أن أندريه بيفيمتش، حين بدأ بالاضطلاع بواجباته، لم يثر ضجة تذكر حول هذه الفوضى. ولكنه طلب فقط إلى الموظفين والممرضات ألا يقضوا الليل في الأجنحة، وخصص دولابين لحفظ الآلات الجراحية. أما المعاون والمشرفة ومرضى الحمرة فقد ظلوا حيث كانوا.

وأندريه بيفيمتش من الأشخاص الذين يقدرون الحكمة والأمانة، ويضعونهما في أعلى مرتبة، ولكن ليس لديه من قوة الطبع والثقة في حقوقه الخاصة ما يساعده على تنظيم الحياة المحيطة به على أسس حكيمة أمينة. فليس هو بالرجل الذي يأمر وينهي ويصر على ما يرى، ويبدو كما لو كان قد أخذ على نفسه عهداً بألا يرفع صوته أو يتكلم بصيغة الأمر. ولذا نراه يستكبر على نفسه أن يقول: «أعطني» أو «احضر لي». وإذا شعر بالجوع مثلاً، أصدر سعلة مترددة وقال لطباخته: ما رأيك في قليل من الشاي؟..

أو «ما حال العشاء؟» أما إذا كان الأمر يتعلق بمنع المعاون من السرقة أو النهب أو بإلغاء الوظائف غير الضرورية فإن ذلك يفوق طاقته. وإذا كذب عليه بعض الناس أو تملَّقوه أو قدموا له حساباً واضح الزيف وغير حقيقي ليوقع عليه، اصطبغ وجهه باللون الأحمر وأحس بنفسه كما لو كان أحد المجرمين. ثم وقّع الورقة.

وإذا اشتكى إليه المرضى من الجوع أو سوء المعاملة، بدت عليه أمارات الحيرة وتمتم معتذراً: «حسن جدًّا، سأنظر في ذلك.. لابد أن يكون هناك شيء من الخطأ غير المتعمد..».

وفي بادئ الأمر كان أندريه بيفيمتش يؤدي عمله بكل حماس. فيستقبل المرضى في الصباح حتى ساعة الغداء ويجري العمليات. بل يقوم بحالات الولادة. وكانت السيدات يقررن أنه رقيق وبارع في تشخيص الأمراض، ولا سيما أمراض النساء والأطفال. ولكن بعد فترة من الزمن فترت همته بسبب رتابة العمل وعدم جدواه، وذلك أنه كان يستقبل ثلاثين مريضاً في أحد الأيام وخمسة وثلاثين في اليوم التالي وأربعين في اليوم الذي يليه.وهكذا سار الحال على هذا المنوال يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام. ولكن نسبة الموت لم تنخفض في المدينة. كما أن المرضى الجدد الواردين على المستشفى لم يقلَّ عددهم، وكان من المستحيل عليه بذل العناية اللازمة للمرضى الأربعين الخارجيين، الذين يفدون على المستشفى كل صباح. حتى أصبح عمله عديم الجدوى بطبيعة الحال. فإذا كان يستقبل في العام اثنى عشر ألفاً من المرضى على أقل تقدير، فمعنى ذلك أن اثنى عشر ألفاً من الرجال والنساء يغرر

بهم في كل عام. وكذلك لم يكن من الممكن احتجاز الحالات الخطيرة في المستشفى وعلاجها بمقتضى القواعد والعلم. وذلك لأنه كان هناك كثير جدًّا من القواعد، ولا شيء هناك من العلم. وحتى لو أنه تمسك بتطبيق القواعد في حذلقة وإدعاء، كما يفعل غيره من الأطباء، لتطلب ذلك أولاً وقبل كل شيء نظافة وتهوية بدلاً من القذارة. وطعاماً صحيًّا بدلاً من حساء الكرنب المتعفن.

ومساعدين جادين بدلاً من اللصوص.

هذا إلى أنه لابد للمرء أن يتساءل: لماذا نمنع الناس من أن يموتوا. إذا كان الموت هو النهاية الطبيعية الشرعية للحياة؟ وما الفائدة من أن نزيد خمس سنين أو عشراً في حياة صاحب دكان أو موظف صغير؟ وإذا قلنا إن هدف الطبيب ينحصر في تخفيف الألم عن طريق إعطاء العقاقير، ثار أمامنا السؤال التالي: ولماذا يجب تخفيف الألم؟ فمن المفروض أولاً وقبل كل شيء أن الألم يساعد الجنس البشري على السير في طريق الكمال، وثانياً لو عرف الجنس البشري كيف يخفف الألم عن طريق الاقراص والمساحيق، لتخلى عن الدين والفلسفة اللذين لم يجد فيهما وقايته من الأمراض فحسب، بل أيضاً سعادته نفسها. وقد عاني بوشكين آلام الاحتضار على فراش موته، وقضى هايني بضعة أعوام من حياته مشلولاً قبل أن يموت. فلماذا إذن يحاول شخص مثل أندريه بيفيمتش أو متريونا سافشنا أن يزيلا الأمراض، مع أنه لولا الألم لكانت حياتهما كحياة الأميبا خالية من كل معنى؟!..

رأى أندريه بيفيمتش نفسه نهباً لمثل هذه الأفكار والحجج، ففترت همته وضعف حماسه، وتخلى عن الذهاب كل يوم إلى المستشفى.

III

(6)

تسير حياة أندريه بيفيمتش اليومية على النحو التالي: يهب من نومه عادة حوالي الساعة الثامنة صباحاً، فيلبس ثيابه ويتناول الشاي. ثم يجلس في مكتبه ويقرأ أو يذهب إلى المستشفى. وهناك في ممر المستشفى المعتم يجد بعض المرضى الخارجيين في انتظار من يوقع الكشف عليهم وعلاجهم. ويرى موظفي المستشفى من ذكور وإناث يطاردونهم ويعدون خلفهم، فيسمع لوقع أحذيتهم على أرض الممر ضوضاء صاخبة. ويرى المرضى الداخليين المنهوكين وشاحبي الوجوه يطوفون هنا وهناك بجلابيبهم المخططة، كما يرى جثث الموتى وآنية الليل تحمل إلى خارج المبنى، . ويسمع عويل الأطفال، ويشاهد أرض الممر وقد زركشتها بقع كثيرة من القذارة.

ويعلم أندريه بيفيمتش أن مثل هذه الظروف تعتبر ضرباً من العذاب الأليم بالنسبة للمحمومين والمسلولين، بل حتى منهكي الأعصاب. ولكن ماذا في وسعه أن يفعل؟ فيدخل قاعة الاستقبال حيث يحييه مساعده سرجي سرجيش، وهو رجل قصير القامة ذو وجه حليق، مكتنز باللحم، قد عنى بغسله وتنظيفه، ذو سجايا سمحة لطيفة، ويلبس حلة جديدة واسعة، ويبدو أكثر شبهاً بأعضاء مجلس الشيوخ منه بمساعدي الأطباء، وهو يمارس عمله هذا في

المستشفى منذ فترة طويلة، ويعتبر نفسه أعلم من أي طبيب لم يمارس مهنة الطب زمناً كافياً.

وهناك في ركن من أركان غرفة الاستقبال ستارة عليها صورة دينية كبيرة ومعلق أمامها مصباح ثقيل مما تضاء به الأيقونات، وبالقرب منها ثريا مما يستخدم في حمل شموع النذور مغطاة بنسيج من الكتان الأبيض. وعلى الحوائط بعض صور المطارنة ومنظر لأحد الأديرة وبضع أكاليل من سنابل القمح الجافة.

ومن المعروف أن سرجي سرجيش رجلٌ متدينٌ ومن أنصار السيادة الكنسية، وهو الذي وضع الأيقونة في المستشفى. وفي يوم الأحد من كل أسبوع يأمر أحد المرضى بتلاوة الصلوات. وبعد ذلك يخرج هو نفسه وبيده المنجدة التي يطوحها إلى الخلف وإلى الأمام، فيطوف بها في أجنحة المستشفى لينشر فيها رائحة البخور.

المرضى عديدون والوقت ضيق، ولذا يتحتم على الطبيب أن يقتصر على توجيه بعض الأسئلة إلى كل مريض، ثم يصف له دواءً ما وفي الغالب بعض الكمادات أو زيت السمك. يفعل الطبيب أندريه بيفيمتش ذلك بطريقة آلية وهو يعتمد بخده على قبضة يده. أما سرجي سرجيش مساعده، فيجلس هو الآخر يفرك إحدى راحتيه بالأخرى، ويعلق ببعض الكلمات ما بين حين وآخر. فيقول مثلاً: «إننا نصاب بالأمراض ونبتلي بالفقر، لأننا لا نصلي لإلهنا الرحيم. نعم هذه هي الحقيقة».

ولم يعد أندريه بيفيمتش يقرر إجراء عمليات أثناء ساعات الاستقبال، فقد تخلى عن إجراء العمليات منذ زمن طويل. وأصبح منظر الدم يصيبه بالدوار. وإذا اضُّطر إلى فتح فم أحد الأطفال لكي ينظر إلى حنجرته، ثم بكى الطفل وحاول أن يمنعه بيديه الصغيرتين، فإن هذه الضوضاء تكاد تقضي عليه بالغثيان وتثير الدموع في عينيه. وحينئذ يسارع بكتابة وصفة طبية ما، ويلوّح للأم بذراعيه لكي تأخذ طفلها.

وبمضي الزمن سئم أندريه بيفيمتش خجل المرضى وغباءهم، ووجود سرجي سرجيش المولع بالطقوس الكنسية والصور المعلقة على الحوائط والأسئلة التي يوجهها إلى الفقراء والتي لم يغيرها منذ عشرين سنة أو أكثر. فصار يسارع بمغادرة المستشفى والذهاب إلى البيت بعد أن يستقبل خمسة مرضى أو ستة، ثم يترك الياقين لمساعده.

وعمل أندريه بيفيمتش على التخلص من الممارسة الخاصة وأصبح يشعر بسرور عظيم ويحمد الله على أنه لم يعد هناك أحد يستدعيه أو يقلق باله بزيارة أو استشارة فجعل يجلس إلى كتبه بمجرد وصوله إلى البيت وينكب على القراءة بشغف ومثابرة. وصار ينفق نصف مرتبه على شراء الكتب والمجلات التي تملأ الآن ثلاث غرف من مسكنه المكون من ست غرف. وكان التاريخ والفلسفة أحب الموضوعات إلى نفسه. وهو يستطيع مواصلة القراءة أربع ساعات متواصلة دون أن تبدو عليه أي أمارات تعب. ولكنه لم يكن يقرأ بالسرعة والشره اللذيْن كان يقرأ بهما إيفان

دميترتش، وإنما كان يقرأ ببطء وتمعن، وكثيراً ما كان يتوقف في المواضع التي يجد فيها لذة أو التي تتسم بعسر الفهم. وكان يضع على مكتبه دورقاً من الفودكا وطبقاً من الخيار المخلل أو التفاح المتبَّل.

ولا يمر عليه نصف ساعة حتى ينتزع عينيه من الكتاب ويصب لنفسه كأساً من الفودكا، ويشعر بالحنين إلى الخيار فيتناول قطعة منه.

وفي نحو الساعة الثالثة يذهب إلى المطبخ بغاية الحذر ويسعل سعلة مترددة ضعيفة، ثم يقول:

- ما حال الغداء يا داريا؟

وبعد أن يتناول أندريه بيفيمتش غداء سيء الطهي لا طعم له، يأخذ في المسير من غرفة إلى غرفة، وقد طوى ذراعيه على صدره وغرق في التفكير. وتدق الساعة الرابعة ثم الخامسة، وهو لا يزال يسير غارقاً في تفكيره، ومن حين لحين يسمع صرير باب المطبخ ويظهر وجه داريا الأحمر المتورَّم، وتقول في شيء من اللهفة:

- أليس هذا أوان البيرة يا أندريه؟

فيجيبها:

- لم يحن بعد .. انتظري قليلاً!

وعند المساء تقريباً يحضر ميخائيل أفريانتش وكيل مكتب البريد وهو الرجل الذي لا يمل أندريه بيفيمتش صحبته. وكان ميخائيل أفريانتش من كبار الملاك الزراعيِّين فيما مضى، وقد خدم في الفرسان، لكنه بدد ثروته واضطر في أواخر أيامه إلى القيام بوظيفة في مكتب البريد وهو يبدو قويًّا موفور الصحة بسوالفه البيض الغزيرة وسجاياه الحميدة وصوته الرخيم بالرغم من علوه. وهو رجل رحيم حساس، وإن كان حاد المزاج. فإذا جرؤ أحد أفراد الجمهور على الاحتجاج على شيء أو استنكار شيء أو حتى إذا ناقش نقطة من النقط، احمر وجه ميخائيل إفريانتش، وارتعدت فرائصه من شدة الغضب، وصاح يقول بصوت كالرعد:

صمتاً!.. حتى اشتهر مكتب البريد في الأرجاء جميعها بأنه مكان فظيع.

وميخائيل، فريانتش يحب أندريه بيفيمتش ويحترمه لعلمه وسمو نفسه، ولكنه يتعالى على من عداه جميعاً ويعتبرهم من حثالة القوم.

ومن عادته أن يدخل الغرفة صائحاً:

- هأنذا! كيف حالك يا صديقي؟ لعلك متبرم بي.. هيه؟

ويرد عليه الدكتور:

- مطلقاً.. مطلقاً! فأنت تعرف أني أكون مسروراً دائماً لرؤياك.

ويجلس الصديقان على أريكة في المكتب، ويدخنان في صمت فترة من الزمن، بعدها يسأل الدكتور:

- ما رأيك في قليل من البيرة يا داريا؟

ويشربان الزجاجة الأولى في صمت أيضاً. فيبدو على الدكتور الانهماك في التفكير. أما ميخائيل إفريانتش فيكون في حالة تحفز، كشخص لديه خبر ممتع يريد أن يفضي به. ولكن الدكتور هو الذي يبدأ الحديث دائماً، فيبدأ بهزة من رأسه دون أن ينظر إلى وجه صديقه (والحقيقة أنه لا ينظر في وجه أي شخص) ويقول ببطء وهدوء:

- أليس مما يدعو إلى الرثاء، ألا يوجد يا عزيزي في مدينتنا نفس واحدة تهتم بحديث ذكي ممتع، أو جديرة بمثل هذا الحديث؟ إنه لحرمان هائل بالنسبة لنا.

فحتى الطبقات المتعلمة لا تستطيع السمو على مستوى التفاهات، وأنا أؤكد لك أن نموهم العقلي ليس خيراً منه لدى الطبقات السفلى.

- هذا حقٌّ. أوافقك عليه تماماً.

ويواصل الدكتور كلامه بصوته الهادئ الرتيب:

- أنت تعلم بطبيعة الحال أن كل ما في هذا العالم لا معنى له ولا متعة فيه. إذا استثنينا المظاهر الروحية السامية للعقل البشري.

فالعقل هو الذي يفرق بين الإنسان والحيوان لأنه هو الذي يهبنا تلك اللمحة من الطبيعة الإلهية التي نتميز بها، بل ويمكننا أن نقرر بأنه يحل إلى حد ما، محل الخلود الذي لا وجود له. وإذا سلمنا بهذه المقدمة استطعنا أن نقول: إن العقل هو المنبع الوحيد للمتعة. ولكننا لا نرى ولا نسمع فيما حولنا عن شيء يشبه العقل، ولو من بعيد. نعم إن لدينا كتبنا ولكنها لا يمكن أن تحل محل الحديث والاتصال الشخصي. وإذا سمحت لي باستخدام استعارة. فإني أقول؛ إذا كانت الكتب هي الموسيقى المكتوبة فإن الحديث هو الغناء.

- هذه هي الحقيقة.

وتبع ذلك فترة صمت، وفي هذه الأثناء تقبل داريا من المطبخ وعلى وجهها أمارات الحزن الصامت. ثم تقف بالباب واضعة خدها على قبضة يدها لكي تنصت إلى ما يقال.

وبعد ذلك يتنهد ميخائيل افريانتش ويقول:

- ولعلك لا تزال تظن أن الناس في أيامنا هذه لهم عقول! وينساق إلى الكلام عن الأزمنة الماضية، حين كانت الحياة سليمة بهيجة تفيض بالمتعة. وعن الطبقات المتعلمة في روسيا القديمة. تلك الطبقات التي كانت تضع الشرف والصداقة فوق كل اعتبار. فكان الناس يقرضون بعضهم بعضاً دون إيصالات وكانوا يعتبرون من النذالة ألا يمد الصديق إلى صديقه يد المعونة عند الحاجة. أما الحملات الحربية والمغامرات والمناوشات والصداقة والنساء،

فحدّث عنها ولا حرج!

- وهنا تتنهد داريا وتقول:

- يا سيدتي العذراء! وكم شربنا وكم أكلنا! وكم عربدنا! وكان أندريه بيفيمتش يصغي إلى ما يقوله ميخائيل أفريانتش دون أن يلقي بالاً إلى معاني كلماته، وفجأة انطلق قائلاً:

- كثيراً ما أحلم بالناس الأذكياء، وأتحدث معهم. والحقيقة أن والدي رباني فأحسن تربيتي. ولكنه كان واقعاً تحت تأثير أفكار قديمة كانت سائدة حينذاك، فجعلني أدرس الطب وكثيراً ما يجول بخاطري أنني لو لم أطعه لكنت الآن أحتل مكاني في قلب الحركة العقلية نفسه. بل ربما أصبحت عضواً في هيئة التدريس بالجامعة. نعم لا شك أن العقل غير خالد، وإنما هو عابر ككل شيء آخر في هذا الوجود. ولكن سبق لي أن أوضحت لك لماذا أجعل له كل هذه المنزلة. فالحياة شَرَكٌ كريه. وبمجرد أن يبحث الشخص المفكر عن النضوج ويصبح قادراً على التفكير الواعي لا يستطيع أن يقاوم شعوره بأنه قد وضع في شَرَكٍ لايستطيع الخلاص منه بأية وسيلة من الوسائل. وإذا فكرت في الأمر وجدت أن الإنسان يقذف به إلى هذا الوجود من حالة اللاوجود دون إرادة منه ولأسباب عرضية بحتة.. ولماذا؟ إنه إذا حاول أن يستنبط معنى الوجود وهدفه، فإنه إما ألا يحصل على أي جواب، وإما أن تنهال عليه الترهات والأباطيل من كل جانب.

إنه يطرق الباب فلا يفتحه له أحد ثم يدهمه الموت، إرادة منه أيضاً. وإذا كان السجناء الذين وحَّد بينهم سوء الطالع يشعرون بأنهم أسعد حالاً كما كانوا سويًّا، فكذلك حال البشر يتجاذبون فيما بينهم بعامل التحليل والتعميم. ولا يلاحظون أنهم في الشَّرَكِ، فيحاولون أن يقضوا وقتهم في تبادل الأفكار السياسية العميقة.

وعلى هذا الاعتبار يعد العقل منبع رضاء لا مثيل له.

- هذه هي الحقيقة.

ويحاول أندريه بيفيمتش دائماً أن تلتقي عيناه بعيني محدثه ويواصل الكلام بصوته الهادئ عن الأشخاص الأذكياء ومتعة الحديث معهم. ويستمع ميخائيل أفريانتش في إصغاء تام دون أن ينسى التعليق على كلامه من حين لحين بجملته المعهودة: هذه هي الحقيقة.

وأخيراً يفاجئه وكيل مكتب البريد بالسؤال التالي:

- ولكن ألا تؤمن بخلود الروح؟

ويرد عليه أندريه بقوله:

- كلا، يا عزيزي ميخائيل، أنا لا أومن بذلك. ولا أجد لدي سبباً يدعوني إلى الإيمان به.

ويعقب ميخائيل افريانتش قائلاً:

- الحقيقة أني أنا أيضاً أشك في ذلك. ولكني من جهة أخرى أشعر بأني لن أموت أبداً. وأراني في بعض الأحيان أقول لنفسي: هيه، أيها الرجل الهرم، لقد آن الأوان لكي تموت! ولكن صوتاً خافتاً يهمس بقوله: لا تصدق ذلك، إنك لن تموت أبداً!!

ولا تكاد تمر الساعة التاسعة حتى يهم ميخائيل افريانتش بالرحيل ويقول في شيء من التحسر وهو واقف بالردهة يتصارع مع معطفه الثقيل:

- يا له من قدر أجوف ذلك الذي قذف بنا إلى هنا. وأسوأ شيء أننا سنضطر إلى الموت هنا أيضاً.. آه يا عزيزي!

III
(7)

بعد أن يودّع أندريه بيفيمتش صديقه يعود إلى مكتبه لكي يستأنف قراءته. ويسود الليل سكون لا يبدده صوت واحد. ويبدو كأن الزمان نفسه قد توقف عن المسير لكي يشاهد الدكتور وكتابه. وكأن الدنيا كلها تنحصر في الكتاب والمصباح ذي الغطاء الأخضر. وتشرق شيئاً فشيئاً ملامح الدكتور الخشنة الريفية بابتسامة الحنان والاحترام لمظاهر العقل البشري، ويتساءل: أوه.. لماذا لم يكن الإنسان خالداً؟. لماذا كل هذه المراكز والتعاريج المخية والبصر والكلام والشعور بالذات والعبقرية، إذا كان مصيرها أن تختلط بالتراب. وفي النهاية تتيبس مع قشرة الأرض لتدور معها حول الشمس بلايين السنين دون هدف أو سبب؟ لا شك أنه لم يكن من الضروري انتزاع الإنسان بعقله السامي الإلهي من هوة النسيان من أجل هذا الأسن والدوران، ثم يرد طيناً من جديد، ويحدث ذلك كما لو كان في لحظة مزاج ثقيل!

والتحول الدائم!.. ولكن من ذا الذي يتعزَّى بهذا البديل من الخلود غير الجبان؟ فالعمليات اللاشعورية التي تدور في الطبيعة أسفل دركاً حتى من الغباء البشري؛ لأن الغباء البشري يحتوي على قدر ما من الشعور والإرادة في حين لا شيء مطلقاً وراء هذه العمليات. الجبان الذي يفوق خوفه من الموت احترامه لنفسه هو

وحده الذي يتعزى بفكرة أن جسمه سيستمر حيًّا في ورقة العشب أو في الحجر أو في الضفدعة.. إن القول بأن التحول نوع من الخلود لا يقل سخرية وغباء عن التنبؤ بمستقبل زاهر لهيكل الكمان بعد أن تتحطم الآلة القيّمة وتصبح عديمة الفائدة.

وكلما دقت ساعة الحائط أسند أندريه بيفيمتش ظهره إلى الكرسي وأغمض عينيه لكي يسترجع أفكاره ويركز لمدة لحظة.. ويبدأ من غير شعور منه في تحليل حياته كلها ماضيها وحاضرها. أما الماضي فإن نفسه تشمئز منه ويفضل عدم التفكير فيه. وأما الحاضر فإنه لا يختلف عن الماضي في شيء. فهو يعرف أنه في اللحظة التي تدور فيها أفكاره حول الشمس مع قشرة الأرض الباردة. يوجد في ذلك المبنى الكبير الذي يبعد بضع خطوات عن غرفته، أناس يتضورون من المرض والقذارة، وأنه ربما كان واحد منهم يرقد الآن مستيقظاً يصارع ضد الهوام والحشرات. وآخر قد أصيب بعدوى الحمرة، أو يصرخ من شدة ضغط الرباط على جرحه، ولعل ثالثاً من المرضى يشتغل في هذه اللحظة نفسها بلعب الورق وشرب الفودكا مع إحدى الممرضات. فالواقع أن اثنى عشر ألفاً من الرجال والنساء يخدعون في كل عام، وأن حياة المستشفى كلها قائمة على السرقة والشجار والنميمة والوِساطة والتحايل المشين كما كان الحال منذ عشرين عاماً بالضبط.

وأن المستشفى لا يزال بؤرة لفساد الأخلاق والإضرار بصحة المواطنين. وأندريه بيفيمتش يعلم علم اليقين أن هناك نيكيتا من وراء قضبان العنبر 6 يضرب المرضى.

وأن موسى يخرج كل يوم إلى الشوارع لطلب الإحسان.

وهو يعرف أيضاً في الوقت نفسه أن علم الطب قد أحرز تقدماً معجزاً خلال الأعوام العشرين المنصرمة. وقد كان يعتقد خلال دراسته في الجامعة أن الطب لن يلبث أن يشاطر الكيمياء الخرافية والميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) ومصيرهما. ولكن هذا الطب نفسه أصبح الآن بعد قراءاته الواسعة يؤثر فيه أعمق الأثر. ويثير فيه إعجاباً لا حد له. يا لهذا النجاح غير المتوقع، ويا لها من ثورة! فبفضل المعقمات أصبح الآن في الإمكان إجراء عمليات كان بيروجوف العظيم نفسه يعتبرها من المستحيلات. وأصبح أطباء المجلس الإقليمي العاديون لا يخشون القيام بعمليات مفصل الركبة. وفي أيامنا هذه لا يموت من تجري لهم عمليات في البطن إلا واحداً في المائة. وتعتبر الحصاة أمراً تافهاً لا يستحق أن يشار إليه في كتاب. وهناك نظرية الوراثة والتخدير واكتشاف باستير وكوخ والصحة الوقائية والإحصاء وهناك الطب العقلي بتصنيفه الجديد للأمراض، وطرق التشخيص والعلاج الحديثة. كل ذلك يبدو كالجبل الشامخ بالنسبة لما كان في الماضي. ولم يعد المرضى بأمراض عقلية يعالجون بالماء البارد أو التكبيل بالسلاسل، ولكنهم يعاملون معاملة الكائنات البشرية. ونحن نقرأ في الصحف أنه تقام الحفلات التمثيلية وحفلات البالية لتسليتهم.

ويعود أندريه بيفيمتش فيفتح عينيه الواسعتين ويسأل نفسه: «ولكن ما جدوى ذلك؟ ماذا جنينا من كل هذا؟ إن المعقمات وباستير وكوخ لم تحدث تغييراً جوهريًّا. فنسبة الموت والمرض لا تزال

كما هي. وإذا كانت تقام الحفلات المسرحية وحفلات الباليه لمرضى العقول. فإن ذلك لم يعفهم من الحجز. وإذن فكل هذه الأمور هباء وقبض الريح. وليس هناك فرق جوهري بين مستشفى وأفضل المستشفيات في فيينا».

ولكن سحابة من الحزن وشعوراً يشبه الحسد منعاه من الانصراف التام عن هذه الأفكار السود. ولكن لعل هذا الشعور يرجع إلى الإرهاق. فقد أرخى رأسه الثقيل على الصحيفة ودس يديه تحت خده ليحصل على قسط أوفى من الراحة، ثم واصل تفكيره: «إني أقوم بخدمة قضية كلها شر، وأتقاضى مرتبي من أناس أخدعهم، فأنا رجل غير شريف. ولكني لست شيئاً يذكر في حد ذاتي، وإنما أنا ذرة من شر اجتماعي ولابد منه. فكل موظفي الإقليم قوم أشرار يتقاضون مرتباتهم دون أن يعملوا شيئاً.. ولذلك لست أنا الذي يُلام على عدم الأمانة، وإنما هو العصر.. ولو تأخر ميلادي مائتي سنة لكنت مختلفاً عما أنا عليه الآن».

وحينما تدق الساعة الثالثة يطفئ مصباحه ويأوي إلى فراشه، وإن لم يكن راغباً في النوم.

III
(8)

منذ عامين أصيب مجلس الإقليم بنوبة كرم، فقرر تخصيص ثلاثمائة روبل سنوياً لدعم الهيئة الطبية في المستشفى إلى أن يحين الحين لإنشاء مستشفى آخر، وقد دعى المجلس البلدي أحد الأطباء التابعين للإقليم، واسمه يفيجيني فيدروفتش لمساعدة أندريه بيفيمتش في عمله. وكان الطبيب الجديد شابًّا حديث السن لم يبلغ الثلاثين من عمره بعد، وكان طويل القامة أسود الشعر عريض الوجه ضيق العينين، ولعله من أصل غير روسي. وقد وصل مدينتنا وليس في جيبه كوبيك واحد، ومعه صندوق وامرأة جرداء تحمل بين ذراعيها طفلاً، وكان يدعوها طباخته.

وكان من عادة الطبيب الجديد أن يلبس قلنسوة مدببة وحذاء برقبة مرتفعة، ويتجول في فصل الشتاء بمعطف قصير من جلد الغنم. ولم يلبث أن عقد أواصر صداقة بينه وبين سرجي سرجيش مساعد الطبيب، ثم الصراف. أما باقي الموظفين الذين يدعوهم بالأرستقراطيين، لسبب ما، فقد ظل بمنأى عنهم.ولم يكن في مسكنه كله سوى كتاب واحد عنوانه: «آخر وصفات مستشفى فيينا لسنة 1881». وهو لا يذهب لعيادة مريض قط دون أن يأخذ معه هذا الكتاب. وكثيراً ما يرى يلعب البلياردو في النادي أثناء المساء، ولكنه لا يلقى بالاً إلى الورق، وهو مغرم إلى أقصى حد بالعبارات

التي من قبيل: «هيا الآن، فما خلق الإنسان إلا ليمرح»، وما شابه ذلك.

ويذهب يفجيني فيدروفتش إلى المستشفى مرتين في الأسبوع حيث يطوف بالأقسام ويستقبل المرضى الخارجيين.

وكان انعدام المعقِّمات ووفرة المحاجم في المستشفى مما يثيره إلى أقصى حد، ولكنه لا يحاول إدخال طرق جديدة خوفاً من أن يغضب أندريه بيفيمتش. فقد كان مقتنعاً بأن زميله أندريه بيفيمتش رجل غريب، ويعتقد في ثرائه، ويحسده في باطنه، ويود لو أنه احتل مكانه.

III
(9)

في مساء يوم من أيام الربيع قُرب آخر شهر مارس حيث كانت آثار الثلج قد اختفت من فوق الأرض، وبدأت العصافير تغرِّد في فناء المستشفى. خرج الدكتور أندريه حتى الباب الخارجي ليودع صديقه وكيل مكتب البريد، وفي هذه الأثناء دخل موسى اليهودي الفناء مقبلاً من إحدى دوراته المعتادة. ولم يكن يضع قلنسوة على رأسه، وكان يلبس خفيه على قدمين حافيتين، وكان يحمل في يده حقيبة صغيرة وضع فيها الصدقات التي جمعها. وحين رأى الدكتور سأله مبتسم الوجه، وإن كان يرتعد من البرد:

- أعطني كوبيكاً واحداً لله!

وقدم له الدكتور أندريه، الذي لم يعرف كيف يرد إنساناً قط، ورقة نقدية من ذات العشرة كوبيكات، ثم نظر إلى ساقيه العاريتين، وعَقبيه النحيلين المعروقين، وقال في نفسه: «ما أبأسه.. في مثل هذا الجو البارد». ودفعه شعور من الشفقة الممزوجة بالاشمئزاز إلى أن يتبعه حتى العنبر. ولم يكد نيكيتا يلمح الدكتور داخلاً حتى قفز من فوق كومة الكُهنة، ووقف أمامه في هيئة انتباه.

فقال أندريه بيفيمتش بصوته الحنون:

- مساء الخير يا نيكيتا! ما رأيك في إعطاء اليهودي زوج حذاء أو شيئاً من هذا القبيل .. إنه عرضة لأن يصاب بالبرد كما ترى.

- حسن يا سيدي. سأبلغ المعاون.

- نعم أبلغه نيابة عني.

وكان الباب الموصل بين الممر والعنبر مفتوحاً. وكان إيفان دميترتش مضطجعاً على فراشه فنهض على إحدى ركبتيه ليصغي إلى هذا الصوت الغريب. وما لبث أن عرف أنه الدكتور. فانتفض غاضباً وهب واقفاً وقد احمر وجهه من شدة الغيظ وبرزت عيناه من محجريهما وقفز يعدو حتى وسط العنبر، ثم انفجر بالضحك وهو يصيح قائلاً:

- لقد حضر الدكتور أخيراً! أهنئكم أيها السادة، فقد تنازل الدكتور وجاء لزيارتكم. هذا التعس الملعون!

وراح يصرخ ويضرب الأرض بقدميه في هياج لم يشاهَد قط في العنبر من قبل. ثم قال:

- اقتلوا هذا التعس! كلا إن القتل شرف له! ألقوا به في المرحاض.

وأطل أندريه بيفيمتش برأسه من باب العنبر، وتساءل في هدوء:

- لماذا؟!

فصاح إيفان دميترتش بأعلى صوته. وسار نحوه وهو يهدد ويضم أطراف ثوبه حول جسمه بحركة عصبية:

- لماذا؟ لماذا؟.. أنت لص.

وزمَّ شفتيه ومطهما إلى الأمام كأنه على وشك أن يبصق، وواصل صياحه قائلاً:

- أيها الدجال!.. أيها المجرم!

فقال له أندريه بيفيمتش وهو يبتسم ابتسامة تشبه أن تكون اعتذاراً:

- لا تغضب! وأؤكد لك أني لم أسرق شيئاً في حياتي قط.وربما كنت مبالغاً بعض الشيء. أرى أنك ساخط عليَّ.. هدِّئ من روعك، وأخبرني، دون انفعال ماذا جعلك ساخطاً عليّ إلى هذا الحد؟

- لماذا تحتجزني هنا؟

- لأنك مريض.

- نعم أنا مريض. ولكن هناك عشرات، بل مئات من المجانين الذين يتمتعون بحريتهم، لا لشيء إلا لأنك أجهل من أن تفرق بينهم وبين الأشخاص الأصحاء. لماذا إذن يتحتم عليَّ، أنا وهؤلاء التعساء أن نتعفن هنا بسبب خطايا غيرنا، كما لو كنا كباش فداء؟

إنك أنت نفسك ومساعدك والمفتش وكل من في المستشفى عصابة من الأوباش، وأحط بكثير من الناحية الخلقية من أي واحد منا، فلماذا إذن يجب أن نكون هنا نحن ولستم أنتم.. أي منطق هذا؟

- لا شأن لذلك بالمنطق والقيم الخلقية، فكل شيء يتوقف على الحظ. فأولئك الذين وضعوا هنا يظلون هنا، والذين ليسوا هنا يتمتعون بحريتهم، هذا كل ما في الأمر. وليس هناك أخلاق ولا منطق في أن تكون أنت مريضاً بعقلك، وأن أكون أنا طبيباً. ليس هناك إلا مجرد الحظ.

فجلس إيفان دميترتش على حافة فراشه، وقال بصوت مخنوق:

- أنا لا أفهم هذا الهُراء.

وأخذ موسى اليهودي، الذي لم يجرؤ نيكيتا على تفتيش حقيبته وجيوبه في حضور الدكتور ينثر على فراشه ما معه من لقيمات وأوراق وقطع عظام، وبدأ يغمغم ويكلم نفسه بالعبرية، وهو لا يزال يرتجف من البرد، ولعله ظن أنه فتح دكاناً جديداً.

وقال إيفان دميترتش في صوت متهدج:

- دعني أخرج.

- لا أستطيع ذلك.

- لماذا لا تستطيع ذلك.. لماذا؟

- لأنه ليس في مقدوري. اسأل نفسك عن جدوى سماحي لك بالخروج. ولو أني فعلت ذلك جدلاً لقبض عليك أهل المدينة ورجال البوليس وأرجعوك إلى هنا.

فقال إيفان دميترتش وهو يفرك جبهته بيده:

- نعم.. نعم.. إنك على حق. هذا أمر شنيع! ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ اخبرني ماذا؟

وأثّر صوته ووجهه الشاب الذكي بالرغم من تقلصاته في أندريه بيفيمتش، فجلس بجانبه على حافة الفراش. وفكر برهة ثم قال:

- أتسألني ماذا يجب عليك أن تفعل؟ إن خير ما يمكنك فعله هو أن تستقر حيث أنت. فالمجتمع إذا صمم على وقاية نفسه من المجرمين والمرضى بالأمراض العقلية وغيرهم من المقلقين، فإنه لا يلين ولا يُقهر. فليس لديك من المسالك المفتوحة إلا مسلك واحد، وهو أن توطن نفسك على أن وجودك هنا أمر ضروري.

- إنه ليس في صالح أي إنسان.

- ما دام هناك أشياء مثل السجون والمستشفيات العقلية وملاجئ المتهوسين، فلابد أن يكون هناك أناس لملئها. إن لم يكن أنت فسأكون أنا. وإذا لم أكن أنا. فأحد آخر. انتظر هذا المستقبل البعيد

حيث لن يكون هناك سجون ولا ملاجيء للمتهوسين وكذلك لن تكون هناك شبابيك عليها قضبان حديد، ولا جلاليب مستشفى.

هذا المستقبل آتٍ لا ريب فيه إن عاجلاً أو آجلاً.

فابتسم إيفان دميترتش ابتسامة ساخرة، وذر الدكتور عينيه، ثم قال:

- أغلب الظن أنك لا تعبأ بذلك. إذ ما معنى المستقبل في نظر أناس مثلك ومثل زميلك نيكيتا؟ ولكن تأكد يا سيدي أنه سيأتي زمن خير من زمننا هذا. قد تضحك مني، ولكن سيطلع على العالم فجر حياة جديدة بكل إشراقه، وستنتصر الحقيقة، وسنرى الضوء، نحن أيضاً. أنا لن أراه. فسأكون قد مت في ذلك الحين. ولكن أحفاد غيري سيرونه. وإني لأحييهم من أعماق قلبي. وأطرب. أطرب من أجلهم، فإلى الأمام، وكان الله في عونكم، أيها الأصدقاء!.

ولمعت عينا إيفان دميترتش، ونهض من مكانه ومد ذراعيه نحو الشباك ثم راح يتكلم في نبرات مضطربة:

- من خلف هذه القضبان، أبعث إليكم بأخلص تحياتي! تحيا الحقيقة! إني أطرب.

وراح أندريه بيفيمتش يتأمل حماس إيفان دميترتش ذلك الحماس المسرحي بعض الشيء، وشعر بانجذاب نحوه من أجل ذلك، ثم قال:

- أنا لا أرى داعياً للطرب. فلن تبقى هناك سجون ولا ملاجئ للمهوسين أو مستشفيات للمجانين، وستنتصر الحقيقة، كما يحلو لك أن تقول. ولكن جوهر الأشياء لن يتغير وقوانين المستقبل ستظل هي هي. وسيمرض الناس ويهرمون ويموتون كما هي حالهم الآن بالضبط. ومهما أضاء الفجر حياتي فإنك في نهاية الأمر ستوضع في صندوق مغلق ويقذف بك في حفرة من الأرض.

- وما رأيك في الخلود؟

- هراء!

- إنك لا تؤمن به، ولكني أنا أومن. فقد قال دستويفسكي وربما كان القائل فولتير، أنه لو لم يكن هناك إله لاضطر بنو البشر إلى اختراعه. وأنا مقتنع كل الاقتناع أنه لو لم يكن هناك شيء من قبيل الخلود لعمل العقل البشري العظيم على اختراعه إن عاجلاً وإن آجلاً.

وأجاب أندريه بيفيمتش وهو يبتسم منشرحاً:

- حسن ما قلت - إن من الخير لك أن تؤمن. فبمثل إيمانك لابد أن يسعد المرء، حتى حين. يصبح سجيناً بين أربع حوائط. ولكنك رجل متعلم على ما أظن؟

- نعم لقد كنت في الجامعة. ولكني لم أكمل تعليمي بها.

- أرى أنك رجل يعرف كيف يفكر. وفي وسعك أن تجد في أفكارك عزاء في كل الظروف. فالفكر العميق الطليق من كل قيد. الرامي إلى فهم الحياة فهماً كاملاً، والاحتقار التام لهذا العالم التافه الخالي من كل فطنة هما أسمى نعمتين عرفهما الجنس البشري. وفي استطاعتك أن تستحوذ عليهما برغم ما في هذا العالم جميعه من شبابيك مغلقة. فقد عاش ديوجين داخل برميل، وكان مع ذلك أسعد من الملوك.

فقال إيفان دميترتش، وقد بدا عابساً وضجراً:

- إن صاحبك ديوجين هذا رجل معتوه. ولماذا تكلمني عن ديوجين وعن فهم هذا الشيء أو ذاك؟

ثم أضاف قائلاً بعد أن قفز على قدميه واستولى عليه غضب عارم مفاجيء:

- إني أحب الحياة! أحبها وأعشقها! وأراني أعاني مرض الشعور بالاضطهاد، وتطاردني المخاوف الدائمة، فلا أستريح من عذابها ليلاً أو نهاراً. ولكن تمر بعض اللحظات التي يتملكني فيها ظمأ شديد إلى الحياة. وأخشى أن تنتهي بي الحال إلى الجنون. أريد أن أحيا. أوه.. أريد أن أحيا!

وعبر أرض العنبر وهو لا يزال في حالة هياج، وقال محاولاً أن يخفّض من صوته بعض الشيء:

- ترتادني الأشباح أحياناً في أحلامي، وأرى الناس يتوافدون عليَّ، وأسمع أصواتاً بشرية ونغمات موسيقية، فيخيل إليَّ أني في مكان ما من الغابة أو على شاطيء البحر، وتتوق نفسي إلى حياة الضجيج والعمل.

ثم ينفجر فجأة بالصياح:

- أخبرني ماذا يجري هنالك؟ ماذا يجري هنالك في العالم الخارجي؟

- أتريد أن تعرف رأيي في مدينتنا وفي العالم عموماً؟

- حسناً، لنبدأ بمدينتنا، ثم بعد ذلك حدثني عن العالم عموماً.

- نعم، لا شيء في مدينتنا سوى الملل.. فليس فيها نفس واحدة يستطيع المرء أن يتحدث إليها، ولم يفد عليها طارئ جديد اللهم إلا طبيب شاب يدعى خوبوتوف أرسل إلينا حديثاً.

- نعم أعرف ذلك، وقد كنت هناك حين جاء، وأعتقد أنه طفل معتوه.

- نعم، إنه رجل غير مثقف. ومن الغريب أن مدننا الكبيرة لا تعرف هذا الركود وتعج بالنشاط العقلي، ومعنى ذلك أن فيها أناساً حقيقيين، ومع كل هذا فإن أصناف الرجال الذين يبعثون بهم إلينا لميسوا على شيء. فيالها من مدينة تعسة!!

فقال إيفان دميترتش وهو يزفر زفرات حارة:

- تعسة حقًّا!

ثم انفجر بالضحك وواصل سؤاله:

- والعالم.. ماذا يكتبون عنه في الصحف والمجلات؟

وفي هذه الأثناء كان الليل قد هبط، فهب الدكتور واقفاً على قدميه، وراح يكلم إيفان دميترتش عما تقوله الصحف والمجلات، ويحدثه عن اتجاهات الفكر الحديث.

وكان إيفان دميترتش يصغي إليه بانتباه شديد، ويوجه إليه بعض الأسئلة من حين لآخر.

وعلى حين غفلة بدا كما لو كان قد تذكر شيئاً مخيفاً. فأمسك رأسه بكلتا يديه واضطجع على فراشه مولياً ظهره نحو الدكتور فسأله الدكتور أندريه:

- ماذا بك؟

وأجاب إيفان دميترتش بجفاء:

-لن تسمع مني كلمة أخرى بعد الآن! فدعني وحدي!

- لماذا؟

- قلت لك دعني وحدي! يا للشيطان!

فتنهد أندريه وهز كتفيه، ثم غادر العنبر، وأثناء مغادرته لمح نيكيتا فقال له:

- قد يكون من الخير أن تنظف هذا المكان قليلاً يا نيكيتا إن له رائحة تزكم الأنوف.

- حسن جدًّا يا سيدي.

وسار أندريه بيفيمتش في طريقه إلى منزله وهو يقول في نفسه:

- هذا الشاب الذي يدعى إيفان دميترتش لطيف للغاية إنه أول رجل أستطيع الكلام معه بعد كل هذه السنين.

فهو يتكلم كلاماً منطقيًّا ومعقولاً، ولا يهتم إلا بالأمور التي تستحق الاهتمام.

وقرر في نفسه وهو يأوي إلى فراشه، أن يعود لزيارته لدى أول فرصة تسنح له.

III
(10)

كان إيفان دميترتش يرقد على فراشه في الوضع الذي كان عليه بالأمس، وقد ضغط براحتيه على صدغيه، وطوى ركبتيه نحو صدره وأدار وجهه ناحية الحائط.

وأقبل عليه أندريه بيفيمتش يسأله:

- كيف حالك يا صديقي؟ أأنت نائم؟

فتمتم إيفان دميترتش دون أن يغير من وضعه الذي كان عليه:

- أولاً أنا لست صديقك. وثانياً لا تحاول أن تجهد نفسك، فلن تحصل مني على كلمة واحدة.

وأجاب أندريه بيفيمتش في شيء من الذهول:

- هذا غريب.. لقد جرى بيننا بالأمس حديث ممتع، حتى رأيتك تعرض عني فجأة وترفض الاستمرار في الكلام.. فلابد أن أكون قد أسأت التعبير، أو قلت شيئاً يجرح خواطرك ومعتقداتك.

فنهض إيفان دميترتش وجلس على فراشه ووجه إلى الطبيب نظرة ملؤها السخرية والاستطلاع في آن واحد، وقد بدا محمر الجفنين

كأن عينيه تقذفان بالشرر، ثم قال:

- أتتوقع مني حقًّا أن أصدقك؟ يحسن بك أن تذهب إلى مكان آخر غير هذا لتمارس فيه تجسسك واختباراتك الطبية. أما أنا فلن تحصل مني على شيء، وقد فهمت جيداً لماذا جئت إليّ بالأمس.

ورد عليه الدكتور أندريه وهو يبتسم:

- أتريد أن تقول أنني جاسوس؟

- نعم.. الأمر كذلك.. إما أن تكون جاسوساً، وإما أن تكون طبيباً جاء يُجري عليَّ تجاربه. وكلا الأمرين سواء.

- إذن اسمح لي أن أقول لك أنك شخص غريب الأطوار.

وبعدها جلس الدكتور أندريه على مقعد بجانب الفراش، وراح يهز رأسه في أسف، ثم قال:

- لنفرض أنك على صواب. لنفرض أنني أحاول حقًّا أن أحصل منك على شيء لأشي بك لدى البوليس، فإنه في هذه الحال سيقبض عليك وتقدم إلى المحاكمة. ولكن أتظن أنك تكون أسوأ حالاً في المحكمة أو في السجن؟ ولو فرضنا أنك نُفيت أو حُكم عليك بالأشغال الشاقة، أتظن أنك تكون هناك أسوأ حالاً مما أنت عليه في هذا العنبر. أنا لا أظن ذلك.. فمم تخاف إذن؟

وقد أثرت هذه الكلمات في نفس إيفان دميترتش، فبدا على أساريره شيء من الانبساط.

وجاوزت الساعة الرابعة بقليل، وهو الوقت اليومي الذي اعتاد أندريه بيفيمتش أن يقضيه في زرع أرض غرفته يميناً ويساراً، حيث تأتيه دارياً وتسأله إن كان مستعداً لشرب بيرته. و.

قال الدكتور:

- كنت في نزهتي التي اعتدت القيام بها بعد الغداء، فجال في خاطري أن أعرج لزيارتك إنه يوم ربيعي حقيقي.

- في أي شهر نحن؟ في شهر مارس؟

- نعم. في نهاية مارس.

- ألا تزال الشوارع موحلة.

- ليس إلى هذا الحد.

فقال إيفان دميترتش، وهو يفرك عينيه المجللتين بالحمرة، كما لو كان قد استيقظ لتوه من نوم عميق:

- ما أحلى أن يخرج المرء بعربته في نزهة خارج المدينة في يوم كهذا، ثم يعود إلى بيته حيث يجد أمامه مكتباً دافئاً مريحاً ثم يتأتى

لي أن أعثر على طبيب لائق يعالج لي صداع رأسي.. لقد نسيت كيف يعيش المرء ككائن إنساني. يا لقذارة هذا المكان! يا لقذارته التي لا تطاق! وكان متوتر الأعصاب مكدوداً من جراء حالة الهياج التي استحوذت عليه في اليوم السابق، فكان يبدو عليه أن ينتزع الكلمات من نفسه انتزاعاً وكانت أصابعه ترتجف، ووجهه يدل على أنه فريسة لصداع عنيف.

وأجاب أندريه بيفيمتش:

- ليس هناك أي فرق بين مكتب دافئ مريح وهذا الجناح، إذ يجب على بني البشر ألا يبحثوا عن السلام والرضا في العالم الخارجي، بل في داخل أنفسهم.

- ماذا تعني؟

- إن الرجل العادي يبحث عن الخير والشر في الأشياء الخارجية كالعربة أو المكتب. أما الرجل المفكر فإنه يبحث عنهما في داخل نفسه.

- اذهب وبشر بفلسفتك في بلاد الإغريق حيث الجو دافيء دائماً، والهواء يفوح طيباً برائحة أزهار البرتقال. فهذا النوع من الفلسفة لا يناسب جونا. عمن كنت أتكلم.. عند يوجين؟

- نعم بالأمس!

- إن ديوجين لم يكن في حاجة إلى مكتب أو غرفة دافئة، لا لشيء إلا لأن الجو دافئ على أية حال. وكان في وسعه أن يتأرجح في برميله وهو يأكل البرتقال والزيتون.

ولو أنه عاش في روسيا، لراح يستجدي أن يؤويه أحد في منزله لا في شهر ديسمبر وحسب، بل أيضاً في شهر مايو. فإن البرد كان جديراً بأن يصيبه بتشنج الأعصاب.

- كلا. كلا. فإن البرد كأي ألم آخر يمكن تجاهله. وقد قال مارك أورويل: ليس الألم إلا التصور الحي للألم. وأنك تستطيع بمساعدة إرادتك أن تغير هذا التصور، وتنفضه عنك، وتوقف الشكوى وبذلك ينصرف الألم، وهو على صواب، فالرجل الحكيم، أو حتى مجرد الرجل المفكر إنما يمتاز عن غيره باحتقاره للألم، ولذا تراه دائماً مسروراً ولا شيء يستطيع أن يصيبه بالدهش.

- إذن لابد أن أكون معتوهاً. لأني أتألم، ولأني غير مسرور، ولأني في دهشة دائماً من دناءة الإنسان.

- أنت مخطيء. فلو حاولت أن تصل إلى جذور الأشياء أكثر مما نفعل الآن. لتحققت من تفاهة الأشياء الخارجية التي تثيرنا وتحركنا. لابد أن تجاهد من أجل الوصول إلى فهم صحيح للحياة.

فقال إيفان دميترتش ثائراً:

- تفهم.. الداخلية، الخارجية.. اسمح لي، إذا كنت لا أفهم هذا النوع

من الأمور.

ثم هب واقفاً في مكانه، وراح ينظر إلى الدكتور شذراً ويقول:

- كل ما أعرفه أن الله خلقني من دم دافئ ومن أعصاب. والمادة العضوية إذا كانت تتمتع بأية طاقة حيوية، فلابد أن تقابل ضروب التأثير بردود أفعال. وأنا أقابل هذه التأثيرات بردود أفعال.

أقابل الألم بالعبرات، وأقابل الانحطاط بالحنق، وأقابل الحقارة بالاشمئزاز.. وهذه هي الحياة في رأيي. فكلما نحط الجسم، قلَّت حساسيته، وضعف رد فعله على ضروب التأثير، وكلما سما ارتفعت حساسيته وقويت ردود أفعاله على العالم الواقعي، فكيف تأتي لك ألا تعرف ذلك؟

وهل يجور لطبيب أن يجهل هذه المبادئ الأولية؟ إن الإنسان الذي يحتقر الألم ويبدو دائماً مسروراً ولا يُدهش لشيء؛ لابد أن يكون قد وصل إلى هذا الدرك. أرجو ألا تؤاخذني، فإني لست حكيماً ولا فيلسوفاً، ولا أفهم شيئاً في هذه الأمور، وليس في مقدوري أن أدلي بالحجج.

- أوه! ولكنك جد قدير على الأدلاء بالحجج.

- لا شك أن الرواقيين الذين تشبعت بتعاليمهم كانوا قوماً ممتازين، ولكن فلسفتهم ظلت في حالة ركود طوال ألفين من السنين، ولم تتقدم قيد أنملة، وذلك لأنها فلسفة غير عملية واقعية. وقد شاعت

بين أقلية من الأشخاص الذين ينفقون حياتهم في الدرس واستساغة التعاليم المختلفة، أما الأغلبية فلم تفهمها قط.

وذلك أن أية فلسفة تدعو إلى عدم المبالاة بالثروة والرفاهية. وإلى احتقار الألم والموت لا يمكن لها بأية حال أن تُفهم من الغالية، لأن الغالبية لم تعرف الثراء ولا الرفاهية في يوم من الأيام، وفي رأيها أن احتقار الألم مساوٍ لاحتقار الحياة نفسها، ولأن وجود الإنسان بأسره يتكون من أحاسيس الجوع والبرد والعذاب والحرمان والخوف من الموت خوفاً يشبه خوف هاملت منه. الحياة كلها تتكون من هذه الأحاسيس، ومهما كانت الحياة ثقيلة مملة، فإنه لم يحدث أن احتقرها أحد.

ولذلك أكرر أن تعاليم الرواقيين لا مستقبل لها، أما القدرة على الصراع وقابلية الإحساس بالألم والمهارة في رد فعل الإثارة هي الأشياء الوحيدة التي تواصل تقدمها منذ أقدم العصور.

وفجأة فقد إيفان دميترتش خيط تفكيره، فوقف صامتاً يفرك جبهته في غيظ شديد، ثم قال:

- كنت أريد أن أقول شيئاً مهمًّا جدًّا، ولكنه فر من ذاكرتي. فيم كنت أتكلم؟ أي نعم! هذا ما كنت أريد أن أقوله: حدث ذات مرة أن أسلم أحد الرواقيين نفسه للاستعباد، لكي يفتدي جاره ويخلصه منه. ومعنى ذلك أن الروافي تأثر بفعل مثير ورد عليه، لأنه لابد أن يكون ذا نفس قادرة على الشعور بالسخط والرثاء لكي يقوم بمأثرة

هائلة كتحطيم نفسه من أجل غيره. ولولا أني نسيت في هذا السجن كل ما كنت أعرف، لذكرت لك أمثلة أخرى، ولكني، إذا أردت، فإليك المسيح مثلاً على ذلك! إن المسيح قد ردّ على فعل عالمه بالبكاء والابتسام والشكوي، بل لقد ذهب إلى حد الغضب الشديد والحزن العميق، وهو لم يقابل الألم بالابتسام ولم يحتقر الموت، بل صلى في ضيعة جشيمان، لكي تعبر عنه هذه الكأس..

وهنا ضحك ايفان دميترتش، ثم استوى جالساً وقال:

- ولنفرض أنك على صواب، وأن السلام والسرور يكمنان في داخل الإنسان، لا في خارجه.. لنفرض أن من الصواب احتقار الألم وعدم الدهشة من أي شيء، ولكن بأي حق تبيح لنفسك أن تبشر بهذا المذهب؟ هل أنت حكيم؟ هل أنت فيلسوف؟

- كلا، لست فيلسوفاً ولكن يجب على كل إنسان أن يبشر بهذا المذهب لأنه يتفق مع العقل والمنطق.

- أوه، ولكني أريد أن أعرف لماذا تعتبر نفسك حجة في الفهم واحتقار الألم وما أشبه ذلك؟ هل حدث لك أن تألمت، ألديك أقل فكرة مما يمكن للألم أن يكون؟ لا تؤاخذني إذا كنت أسألك عن ذلك، ولكن هل تأتَّى لك أن تُضرب بالسوط في طفولتك؟.

- كلا، فإن والديَّ كانا يستنكران العقاب البدني.

- أما أنا فقد تعود أبي أن يجلدني بالسوط دون رحمة، فقد كان

رجلاً عنيفاً، موظفاً طويل الأنف، أصفر العنق، يشكو مرض المرارة. ولكن دعنا نتكلم عنك. إن أحداً لم يمسّك بأصابعه طوال حياتك، ولم يهددك أحد، لم يضطهدك أحد.

وأنت قوي البدن كالحصان. وقد شببت تحت جناح والدك، وتعلمت بنقوده، ثم حصلت على وظيفة، وها أنت تستمتع بمسكن دافئ موفور الإضاءة دون أن تدفع له أجراً، ولديك خادمة، ولك الحق كل الحق في ألا تعمل حين يحلو لك، أو ألا تعمل على الإطلاق.

فأنت رجل كسول، سلبي بطبيعتك، ومن ثم نظمت حياتك بحيث تتجنب كل قلق، وكل حركة زائدة على الحاجة. وقد ألقيت كل عملك على كاهل مساعدك وغيره من الحقراء لكي تستمتع أنت بالهدوء والدفء وادخار المال والقراءة وتزويد عقلك بأنواع الحماقات السامية كلها - وهنا ألقى إيفان دميترتش نظرة عابرة على أنف الدكتور الأحمر اللون - وواصل كلامه: وقصارى القول أنك لم تر في الحياة شيئاً، ولم تعرف عن الحياة شيئاً، وليس لديك عن عالم الواقع إلا معرفة نظرية بحتة. إنك تحتقر الألم ولا تسمح لشيء بأن يصيبك بالاندهاش لسبب بسيط جدًّا، وهو أن ترهات غرورك من الاحتقار الخارجي والداخلي للحياة والألم والموت والتفهم، والنعم الحقيقية. كل هذه فلسفة تليق بمتعطل روسي أكثر مما تليق بأحد سواه. فأنت ترى فلاحاً يضرب زوجته مثلاً فتقول: لماذا أتدخل؟ دعه يضربها. إنهما الإثنان سيموتان إن عاجلاً أو آجلاً. هذا إلى أن الزوج هو الذي سيحط الضرب من قدره. وليست ضحيته. وبطبيعةالحال. من الغباء وعدم اللياقة أن يسكر المرء

ولكن الذين يسكرون والذين لا يسكرون يموتون على السواء. وإذا جاءت امرأة تشكو من ألم في سنها..

ليكن. فما أهمية ذلك؟ إن الألم ليس شيئاً آخر غير تصورنا لذلك. هذا إلى أنه لا يمكننا توقع العيش دون أي ألم.. ونحن جميعاً سنموت لذلك فلتذهب لحال سبيلها، هذه المعتوهة. ولتتركني أفكر وأشرب في هدوء. وإذا جاء شاب يطلب النصيحة، يسأل ماذا يفعل وكيف ينظم حياته. فإن غيرك يمهله قليلاً ريثما يفكر. ثم يجيبه بعد ذلك. أما أنت فجوابك حاضر دائماً. وهو جاهد من أجل التفهم. أو من أجل النعمة الحقيقية على حد تعبيرك.

ولكن ما هو لغز تلك «النعمة الحقيقية»؟ أغلب الظن أنه ليس لهذا السؤال أي جواب. وإذا احتجزنا هنا خلف القضبان حيث نُضرب ونعيش وسط القذارة. فلا يأس من ذلك لأنه يتفق مع العقل والمنطق. ولأنه لا فرق بين هذا الجناح وبين مكتب دافئ مريح.

إنها لفلسفة مناسبة حقًّا! وليس عليها أي غبار، وأنت مطمئن الضمير وتشعر بأنك حكيم حقيقي.. كلا وألف كلا، يا سيدي، إن هذه ليست فلسفة إنها ليست تفكيراً. إنها ليست سعة أفق، إنها مجرد كسل وقدرية وخمول عقلي.. ثم صاح إيفان دميترتش بحماس متجدد، وقال: نعم هذا حق! إنك تحتقر الألم.. ولكن لو حدث لأصبعك الصغرى أن انعصرت بين الباب والحائط فربما صرخت بأعلى صوتك!..

فقال أندريه بيفيمتش، وهو يبتسم ابتسامة لطيفة:

- ربما لم أفعل ذلك.

- إذا لم تفعله، فبكل مشقة! والآن لو أن شللاً مفاجئًا أصابك فألزمك الأرض. أو لو أن ملتاثاً أو شخصاً سيء التربية استغل درجته ومركزه الاجتماعي فأهانك علنا وعرفت أنه سينجو من العقاب، لعرفت حينئذ معنى أن تنصح الناس بالعيش على التفهم والنعم الحقيقية.

وهنا قهقه أندريه بيفيمتش قهقهةً مرحة، ثم قال وهو يفرك يديه إحداهما في الأخرى:

- إن ذلك يتسم بطابع الابتكار حقًّا. والواقع أني معجب كل الإعجاب بتعميماتك، وتلك الطريقة التي وصفت بها خلقي طريقة رائعة..

ولا شك أن الحديث معك متعة كبرى.. وها أنذا قد أصغيت إليك، فأرجوك الآن أن تتفضل بالإصغاء إليَّ.

III
(11)

واستمرا بعد ذلك في الكلام نحو ساعة، وقد أثرت هذه المحادثة في نفس أندريه بيفيمتش تأثيراً عميقاً، حتى إنه أصبح الآن يزور العنبر كل يوم. فكان يذهب إليه في الصباح وبعد العشاء، وكثيراً ما كان يدهمه الظلام وهو جالس يتحدث مع إيفان دميترتش.

وفي بادئ الأمر كان إيفان دميترتش يعرض عنه ويرتاب في أن تكون له نوايا شريرة، ويعترف له صراحة بأنه يبغضه، ولكنه ما لبث أن ألفه واستبدل بالنغمة الجافة التي كان يخاطبه بها، نغمة أخرَى فيها سخرية وتسامح.

وسرعان ما شاع في المستشفى أن الدكتور أندريه بيفيمتش يواظب على زيارة العنبر 6، ولم يستطع موظفو المستشفى من المساعد إلى نيكيتا والممرضات أن يفهموا لماذا يذهب الدكتور إليه ويجلس فيه الساعات الطويلة. ولا أن يعرفوا ماذا يجد من مادة للحديث. أو لماذا لا يكتب أية وصفة. وبدا لهم أن في سلوكه شيئاً من الغرابة. وكثيراً ما كان يذهب ميخائيل أفريانتش لزيارته في بيته فلا يجده فيه. كما أن داريا نفسها أصبحت في حيرة من أمرها، لأن الدكتور لم يعد يواظب على مواعيد بيرته، وكثيراً ما يتأخر عن موعد العشاء.

وحدث ذات يوم في أواخر شهر يونية أن ذهب الدكتور خوبوتوف إلى أندريه بيفيمتش في بيته من أجل مسألة ما، فلما لم يجده ذهب للبحث عنه في فناء المستشفى، وهناك أخبروه بأنه في عنبر الأمراض العقلية، فذهب إليه وفي طريقه توقف في الممر حيث استطاع أن يسمع المحادثة التالية؛ وكان المتحدث هو إيفان دميترتش.. كان يقول بنغمة شاكية:

- إننا لن نتفق أبداً، ولن تستطيع تحويلي إلى آرائك، فأنت لم تعرف شيئاً عن عالم الواقع، ولم تذق طعم الألم، وإنما عشت طول حياتك كدودة العلق، على آلام الآخرين، أما أنا فلم أعرف سوى الألم منذ اليوم الذي رأيت فيه نور الحياة. ولذلك سأكون صريحاً معك، فأقول لك: إني أعتبر نفسي أسمي منك عقلاً وأكثر خبرة من كافة الوجوه، ولست أنت الذي تستطيع أن تغدق عليَّ نصائحك ودروسك.

وأجابه أندريه بيفيمتش بنغمة هادئة حزينة:

- ليست لدي أدنى رغبة في تحويلك عن آرائك، وكوني أنا لم أتألم في حين أنك أنت قد تألمت، فهذا أمر لا علاقة له بموضوعنا. فالألم والابتهاج حالتان عابرتان، ويمكننا تجاهلهما، لأنهما لا وزن لهما.

والمسألة أننا نحن الاثنان نستطيع التفكير، وكل منا يرى في صاحبه شخصاً قادراً على الإدلاء بالرأي وقرع الحجة بالحجة،

وهذا يخلق بيننا نوعاً من التعاطف مهما اختلفت آراؤنا. فأتمنى لو أدركت مقدار مللي من جنون الناس وتفاهتهم وغبائهم، ومقدار البهجة التي أشعر بها كلما تحدثت معك! إنك رجل ذكي ولذلك أراني أبتهج بصحبتك.

ووارب خوبوتوف الباب قيد إصبع، وأطل برأسه في الغرفة، فرأى إيفان دميترتش يجلس على الفراش بجلباب النوم، والدكتور بجانبه، وكان الرجل المجنون لا يكف عن تقليص عضلات وجهه، وينتفض من حين لآخر، وقد شدّ ثوبه حول جسمه بصورة عصبية، في حين جلس الدكتور بجانبه دون حراك، وقد أطرق برأسه إلى الأرض، وبدا عليه الشحوب والحزن والحيرة. فهز خوبوتوف كتفيه، وراح يتبادل الابتسامات والنظرات مع نيكيتا، وهز هذا الأخير كتفيه أيضاً.

وفي اليوم التالي أحضر خوبوتوف المساعد الطبي معه ووقفا كلاهما في الممر ينصتان إلى المحادثة.

وقال خوبوتوف وهما يغادران العنبر:

- يبدو أن عقل صاحبنا الهرم قد طار!

فتنهد سرجي سرجيش التقي الورع وهو يخطو في الفناء بكل حذر مخافة أن يدنس حذاؤه اللامع المصقول وقال:

- اللهم الطف بنا! الحقيقة يا عزيزي أني كنت أتوقع هذه النهاية

منذ زمن طويل!

وبعد زيارة خوبوتوف للعنبر مباشرة بدأ أندريه بيفيمتش يحس بأن جوًّا من الغموض يحيط به. فقد كان مساعدو المستشفى وممرضاته ومرضاه يلاحقونه بنظرات ملؤها الفضول، ويأخذون في التهامس حينما يلمحونه مارًّا أمامهم. وكان من عادة الدكتور أندريه أن يلاطف ابنة المعاون الصغيرة كلما قابلها في حديقة المستشفى، فأصبحت الآن تفر منه مذعورة كلما رأته يحاول أن يمر بيده على شعرها. ولم يعد ميخائيل إفريانتش يجيب على خطبه الحماسية بجملته المعهودة:

«هذه هي الحقيقة». وصار يعلِّق بقوله في نغمة مختلفة حائرة: «بالتأكيد». ثم ينظر إليه في إطراق وحزن عميق.ولسبب ما بدأ ينصحه بالكف عن شرب البيرة والفودكا. وقد حرص على أن يوجه إليه ذلك في عبارات ملفوفة وإشارات خفيفة، وأسلوب غير مباشر يليق بسلوك رجل في مستوى تهذيبه وحسن تربيته. فيحدثه حيناً عن قائد كتيبته وعن لطف معشره ودماثة أخلاقه، وحيناً عن قسيس الكتيبة ومرح روحه وعلو نفسه، ويخبره كيف أنهما انساقا، في فترة ما، إلى إدمان المشروبات الروحية حتى حلّت بهما الأمراض، ولكنهما أقلعا عن الشراب، فسارع إليهما الشفاء.

وزاره زميله خوبوتوف مرة أو مرتين، وحاول أن ينصحه هو الآخر بالإقلاع عن الشرب، وراح يوحي إليه، دون سبب واضح بتعاطي بروميد البوتاسيوم.

وفي شهر أغسطس تلقى أندريه بيفيمتش خطاباً من العمدة يدعوه فيه إلى الحضور لأمر بالغ الأهمية. وحينما دخل قاعة البلدية وجد نفسه أمام اجتماع يتكون من المستشار العسكري ومفتش المدارس بالإقليم وأحد أعضاء المجلس البلدي وخوبوتوف وشخص آخر بدين ذو شعر لطيف قُدِّم إليه على أنه دكتور. وكان هذا الدكتور الذي يحمل اسم بولونيا عسير النطق يقطن ضيعة لتربية الخيول على بعد ثلاثين فرسخاً. وقد توقف في المدينة أثناء عبوره لها من باب المصادفة.

وبعد أن انتهى الجميع من تبادل التحيات، وجلس كل منهم في مكانه حول المنضدة. التفت عضو البلدية نحو أندريه بيفيمتش وقال:

- لدينا التماس له علاقة باختصاصاتك وذلك أن يفجيني فيدوروفتش يقرر أنه ليس هناك مكانٌ كافٍ للعيادة الخارجية في المبنى الرئيسي، وأنه يجب نقلها إلى أحد الأجنحة.وليس هذا النقل هو الذي يشغل بالنا، ولكن الذي يهمنا هو أن الجناح الملائم يحتاج إلى إصلاح.

- ففكر أندريه بيفيمتش برهة، ثم قال:

- نعم يحتاج إلى إصلاح لا جدوى منه. وإذا كنا سنستخدم الجناح الذي في الركن للعيادة الخارجية، فإن إصلاحه يحتاج إلى خمسمائة روبل على الأقل. وهي نفقات لا ثمرة من ورائها.

وخيّم الصمت على الجميع لمدة لحظة، ثم واصل أندريه كلامه قائلاً:

- وقد كان لي الشرف أن أخبرك منذ عشر سنين بأن المستشفى في حالته يعتبر بذخاً لا تتحمله إمكانيات المدينة. فقد بنى قبل أربعين سنة، وقد تغيرت الأحوال تغيراً كبيراً منذ ذلك الحين. وأصبح مجلس المدينة ينفق كثيراً على مبان غير ضرورية وتعيينات لا طائل من ورائها. ولو أن الأمور سارت على غير هذا النسق، فإني واثق من أنه يمكننا الحصول على مستشفيين نموذجيين بالنفقات نفسها.

وأجاب عضو المجلس البلدي بشغف شديد:

- حسن إذن دعنا نستعرض الحالة على نسق آخر.

فقال أندريه بيفيمتش:

- لقد كان لي الشرف أن أعبر لكم عن رأيي من قبل؛ وهو أن نترك المنظمة الطبية لمجلس الإقليم.

فقهقه الدكتور ذو الشعر المسترسل وقال:

أي نعم، نقدم أرصدتنا لمجلس الإقليم بأية وسيلة، لكي يسرقوا النقود.

وضحك عضو المجلس البلدي أيضاً. وقال مؤمناً على كلامه:

بدون شك.. بدون شك.

فأدار أندريه بيفيمتش عيناً خابية صفراء المآقي نحو الطبيب ذي الشعر المسترسل وقال:

- يجب ألا نسرف في سوء الظن.

وخيمت فترة أخرى من الصمت، ثم قدم الشاي. وفجأة ظهر الارتباك على سمات المستشار العسكري. فمد ذراعيه عبر المنضدة حتى لمس يد أندريه بيفيمتش وقال:

- يبدو أنك قد نسيتنا كل النسيان يا دكتور، ولكني أعلم أنك تفضل العزلة، وأنك لا تلعب الورق ولا تغرم بالنساء، فصحبتنا غير ممتعة بالنسبة لك.

وبدأ كل واحد من الحاضرين يقرر أن كل رجل له بعض القيمة لابد أن يتأفف من هذه المدينة، فليس فيها مسرح ولا متحف. وكانت آخر حفلة رقص أقيمت في ناديها لا تضم غير عشرين سيدة ومراقصين اثنين. فالشبان لا يرقصون ويفضلون التزاحم حول المقصف ولعب الورق. وبدأ أندريه بيفيمتش يتكلم بصوته الهادئ البطيء، دون أن يوجه نظرة إلى أحد، ويقول إنه من المحزن، بل من المحزن جدًّا أن يبدد المواطنون نشاطهم وأرواحهم وعقولهم في لعب الورق أو في اللغو ثم لا يستطيعون

بل ويرفضون أن ينفقوا وقتهم في المحادثات الممتعة أو في القراءة. ويعزفون عن الاستمتاع بمباهج العقل. فالعقل وحده هو الشيء الممتع الممتاز، وكل ما عداه تافه وحقير. وفي هذه الأثناء كان خوبوتوف يصغي إلى زميله بكل انتباه وفجأة قطع عليه حديثه بهذا السؤال:

- ما تاريخ هذا اليوم يا أندريه بيفيمتش:

ولم يكد خوبوتوف يتلقى جواب هذا السؤال، حتى راح هو والدكتور ذو الشعر المسترسل يمطران أندريه بيفيمتش بوابل من أسئلتهما فسألوه عن اسم اليوم وعدد أيام السنة، وعما إذا كان هناك في العنبر رقم 6 شخص عجيب، وكانت نغمتهما نغمة ممتحنين على بينة من عدم خبرتهما.

وحين أخذ أندريه بيفيمتش في الإجابة، على هذا السؤال الأخير اصطبغ وجهه بغلالة خفيفة من الحمرة وقال:

- نعم..إنه رجل مريض، ولكن الحديث معه ممتع إلى أقصى حدود الإمتاع.

ولم يوجه إليه أي سؤال بعد هذا الجواب.

وبينما كان يلبس معطفه في الردهة. أقبل عليه المستشار العسكري وربت على كتفه، ثم تنهد وقال:

- لقد آن الأوان ليفكر الأشخاص الهرمون من أمثالنا في الخلود إلى الراحة.

وقد أدرك أندريه بيفيمتش وهو يغادر قاعة المدينة أنه إنما دُعي للمثول أمام لجنة مكلفة بفحص حالته العقلية، فرجع بذاكرته إلى الأسئلة التي وجهت إليه، وصعد الدم إلى وجهه، وشعر لأول مرة في حياته بنوع من الإشفاق المر على علم الطب.

وقال في نفسه وهو يفكر في الطريقة التي اتبعها الدكتوران في اختباره: «يا إلهي! إنهما لم ينتهيا من دراستهما للطب العقلي إلا منذ عهد وجيز، وقد اجتازا الامتحانات التي وضعت لهما بنجاح. فلماذا إذن هذا الجهل المطبق؟ إنهما يجهلان كل شيء. كل شيء عن الطب العقلي!

ولأول مرة في حياته شعر بأنه قد أهين واستشاطت نفسه غضباً. وفي مساء اليوم نفسه جاء ميخائيل افريانتش لزيارته. فلم يتوقف حتى يلقي عليه التحية، بل سارع بالذهاب إليه وأخذ كلتا يديه بين يديه، وقال بصوت عميق النبرات يبدو فيه التأثر الشديد:

- يا صديقي العزيز، برهن لي على أن تؤمن بصدق مشاعري نحوك وتعتبرني صديقك المخلص!

ثم لم يدع له فرصة للكلام، وواصل حديثه بنغمة محمومة:

- إني أحبك لعلمك ونبل روحك، والآن أصغ إلى يا صديقي.. إن

الأخلاق المهنية تحتم على الأطباء أن يكتموا عنك الحقيقة.

ولكني سأكون صريحاً معك: حالتك الصحية ليست على ما يرام! لا تؤاخذني يا صديقي العزيز، ولكن هذه هي الحقيقة، وكان الأشخاص المحيطون بك قد لاحظوا ذلك منذ فترة. وقد أخبرني يفجيني فيدروفيتش بالذات بأن حالتك الصحية تقتضي أن تلزم الراحة وأن ترفِّه عن نفسك. وهذا حقٌّ حق لا ريب فيه! وها أنذا على وشك أن آخذ إجازتي، وأذهب لاستنشاق الهواء الطلق. فقدّم لي دليلاً على صداقتك. وتعالِ معي - تعال معي- هناك سنستعيد شبابنا!

فأطرق أندريه بيفيمتش لحظة، ثم قال:

- إني أشعر بأني في أتم صحة، وليس في مقدوري أن أصحبك، فدعني أبرهن على صداقتي بطريقة أخرى.

وكان أندريه بيفيمتش قد رأى في بادئ الأمر أن ابتعاده دون سبب وتركه لداريا وكتبه وبيرته، وهجرانه لعاداته التي يتبعها منذ أكثر من عشرين عاماً يعتبر فكرة جنونية وأمراً يدعو إلى التعجب. ولكنه لم يلبث أن تذكَّر ما قيل له في قاعة البلدية، وحالة الانهيار التي شعر بها وهو في طريقه إلى البيت. ففكر فجأة أن يغادر المدينة لفترة ما. تلك المدينة التي يتهمه غباء أهلها بالجنون.

وسأل أندريه بيفيمتش صديقه مدير مكتب البريد:

- إلى أين تعتزم الذهاب؟

فأجابه:

- إلى موسكو.. إلى بطرسبورج.. إلى وارسو.. لقد قضيت خمسة أعوام في وارسو، وهي أسعد سنوات حياتي.. يا لها من مدينة ساحرة.. هيا معي يا صديقي العزيز.

III
(12)

وبعد أسبوع عرضوا على أندريه بيفيمتش أن يستريح، فقدم استقالته بلا مبالاة، وبعد أسبوع آخر كان هو وميخائيل افريانتش جالسين في عربة متوجهين إلى محطة القطار. كان الجو بارداً والسماء صافية زرقاء والأفق شفَّافاً. وطوال الطريق إلى محطة القطار لم يكف ميخائيل افريانتش دقيقة واحدة عن الحديث حول رحلاته إلى القوقاز والمملكة البولندية، وكم خاض من مغامرات، وعقد من لقاءات!.. كان يتحدث بصوت عالٍ وينظر بعينين مدهوشتين بحيث كان من الممكن الظن بأنه يكذب، وعلاوة على ذلك كان وهو يتحدث يزفر في وجه أندريه بيفيمتش ويقهقه في أذنه. مما جعل الدكتور في غاية الضيق والضجر.

سافرا في الدرجة الثالثة في القطار، في عربة لغير المدخنين، وكان معظم الركاب في مثل حالتهما الاجتماعية.

وسرعان ما تعرف ميخائيل إفريانتش على جميع الركاب، وراح يتنقل من مقعد لآخر وهو يتحدث بصوت عالٍ ولا يعطي للآخرين فرصة للكلام. وقد أرهقت ثرثراته اللانهائية والمقترنة بالضحك العالي المبالغ فيه، أندريه بيفيمتش وأزعجته كثيراً.

وفكر بأسى: «أينا المجنون يا ترى؟».. أنا الذي أحاول ألا أسبب

أي إزعاج للركاب، أم هذا الأناني الذي يعتقد أنه أذكى وأطرف الجميع هنا، ولذلك يزعج الجميع؟!.

في موسكو ارتدى ميخائيل إفريانتش سترة عسكرية بدون شارات وسروالاً بشرائط حمراء. وكان يسير في الشوارع بهذه الهيئة العسكرية، فيؤدي له الجنود التحية العسكرية. وبدا لأندريه بيفيمتش الآن أنه شخص قد بدا من أصله النبيل الذي كان له في وقت ما كل ما هو طيب ولم يُبقِ لنفسه إلا ما هو سيء فقط. كان يحب أن يُحتفى به حتى عندما لم يكن ثمة داعٍ لذلك على الإطلاق. إذ يكون الكبريت موضوعاً أمامه على الطاولة، وهو يراه، ولكنه يصيح منادياً الخادم لكي يقدم له كبريتاً.

ولم يكن يخجل من السير أمام عاملة الفندق بملابسه الداخلية. وينادي جميع الخدم دون تفرقة حتى كبار السن منهم بلفظ: أنت وليس: أنتم كما تقضي بذلك تقاليد المخاطبة الروسية مراعاة لأصول الاحترام واللياقة. وعندما يغضب يدعوهم بالحمقى والبلهاء وخيل لأندريه بيفيمتش أن ذلك كان من طباع السادة، ولكنه شيء مقزز على كل الأحوال.

قاد ميخائيل إفريانتش صديقه أندريه، قبل كل شيء إلى كنيسة إيفير. وصلى بحرارة وهو يركع حتى الأرض وعيناه تدمعان، وعندما فرغ من الصلاة تنفس الصُّعَداء وقال:

- عندما تصلي، حتى لو لم تكن مؤمناً، تشعر براحة أكثر.

هيا قبِّل يا عزيزي.

وارتبك أندريه بيفيمتش وهو يقبِّل الأيقونة.

بعد ذلك توجها إلى الكريملين، وشاهد هناك ملك المدافع وملك الأجراس، وتحسساهما بأصابعهما. وأنعما النظر بمنظر ما وراء نهر موسكو. وزارا معبد المخلص ومتحف روميانتسف. ثم تناولا الغداء في مطعم تيستوف. وحدّق ميخائيل افريانتش طويلاً في قائمة الطعام وهو يمسِّد فوديه وقال بنبرة الذواقة الذي تعود أن يشعر بنفسه في المطاعم وكأنه في بيته:

ـ فلنر ماذا استطعمنا اليوم يا فتى.

III
(13)

كان الدكتور أندريه يمشي ويتفرج ويأكل ويشرب، ولكنه لم يكن يحس إلا بشيء واحد، هو القرف الشديد من ميخائيل إفريانتش. وود لو يرتاح من صديقه ويبتعد عنه ويختفي، ولكن الصديق اعتبر من واجبه لا يتركه يبتعد عنه خطوة، وأن يهيء له أكبر ما يمكن من المتع. وعندما لم يكن هناك ما يشاهد، كان يسلِّيه بالأحاديث.

وصبر أندريه على ذلك يومين، وفي اليوم الثالث أخبر صديقه أنه مريض ويريد أن يبقى في البيت طوال اليوم. فقال الصديق إنه في هذه الحالة سيبقى هو أيضاً وبالفعل ينبغي أن يستريح وإلا فلن تكفيه قدماه. ورقد أندريه بيفيمتش على الكنبة ووجهه إلى ظهرها، وزم أسنانه وهو يصغي لصديقه الذي راح يؤكد له بحرارة أن فرنسا ستهزم ألمانيا حتماً إن عاجلاً أو آجلاً. وأن في موسكو كثيراً جدًّا من المحتالين، وأنه لا يمكن الحكم على جودة الجياد وأصالتها من مظهرها الخارجي. وبدأ أندريه بيفيمتش يحس بطنين في أذنيه وتسارع في ضربات قلبه، ولكنه لم يجرؤ من باب اللياقة أن يطلب من صديقه أن يتركه أو يصمت. ولحسن الحظ أن ميخائيل إفريانتش قد مَلَّ من البقاء في الغرفة، فانصرف منهما ليتنزه في الشارع.

وعندما أصبح أندريه بيفيمتش وحده استسلم للإحساس بالراحة، وقال لنفسه: «ما أجمل أن تستلقي على الكنبة بلا حراك، وأن تشعر بأنك وحيد في الغرفة!

السعادة الحقيقية مستحيلة بدون الوحدة.

وأراد أندريه يفيمتش أن يفكر فيما رآه وما سمعه في الأيام الأخيرة، ولكن ميخائيل افريانتش لم يفارق مخيلته. وفكر بأسى: «ولكنه أخذ أجازة وسافر معي بدافع الصداقة، بدافع السماحة.. ليس هناك ما هو أسوأ من الوصاية باسم الصداقة.. إنه يبدو طيباً، وسمحاً، ومرحاً، ومع ذلك فإنه ممل.. ممل إلى درجة لا تُحتمل..

وهكذا قد تجد أناساً لا يقولون إلا كلمات ذكية جيدة، ولكنك تحس بأنهم أناس بلداء».

في الأيام التالية كذلك ادعى أندريه بيفيمتش بأنه مريض، ولم يغادر الغرفة. ظل راقداً ووجهه إلى ظهر الكنبة، ويعاني عندما يسليه صديقه بالأحاديث، أو يرتاح عندما يكون الصديق غائباً. وحنق على نفسه لأنه سافر، وعلى صديقه الذي كان يزداد ثرثرة يوماً بعد يوم. ولم يستطع أبداً أن يوجه أفكاره في اتجاه جاد سام.

وفكر وهو يشعر بالغضب من تفاهته: «إنه الواقع يعصرني، الواقع الذي تحدث عنه إيفان دميتريتش. وعموماً فهذا هراء.. عندما أرجع إلى البيت سيسير كل شيء كما كان في السابق..».

وفي بطربسبورج تكرر نفس الوضع. كان لا يغادر الغرفة أياماً بكاملها وهو راقد على الكنبة ووجهه إلى ظهرها. ولا ينهض إلا ليشرب البيرة.

وكان ميخائيل افريانتش طول الوقت يتعجل السفر إلى وارسو.

فيقول أندريه يفيمتش بضراعة:

- يا عزيزي، وما الداعي لذهابي أنا؟ سافر وحدك، واسمح لي أن أعود إلى البيت.. أرجوك!

فيحتج ميخائيل إفريانتش:

- لا يمكن بأية حالة! إنها مدينة رائعة. قضيت فيها أسعد خمس سنوات من عمري.

لم يكن لدى أندريه يفيمنتش من الإرادة ما يكفي للإصرار على رأيه، فسافر مكرهاً مع صديقه ميخائيل إلى وارسو.

وهناك لم يغادر الغرفة، وظل راقداً على الكنبة، وهو يحنق على نفسه وعلى صديقه، وعلى الخدم الذين أصروا بعناد على عدم فهم الروسية.أما ميخائيل افريانتش بصحته ونشاطه ومرحه كالعادة، فكان يتجول في المدينة من الصباح إلى المساء، ويبحث عن معارفه القدامى. ولم يبت في الفندق عدة مرات.. وبعد ليلة قاضاها في مكان غير معروف، رجع إلى الفندق في الصباح الباكر وهو

في حالة انفعال شديد، أحمر الوجه، مشعث الشعر، وأخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً فترة طويلة، وهو يدمدم بكلمات ما، ثم توقف وقال:

- الشرف!.. الشرف قبل كل شيء!

ثم تمشى قليلاً، وأمسك رأسه بيديه وقال بصوت تراجيدي:

- نعم، الشرف قبل كل شيء!.. اللعنة على تلك الساعة التي فكرت فيها أن آتي إلى بابل هذه!

ثم التفت إلى الدكتور أندريه وقال:

- يا عزيزي.. فلتحتقرني.. لقد خسرت في القمار..

هل يمكنك أن تقرضني خمسمائة روبل؟!

عَدّ أندريه بيفيمتش خمسمائة روبل وأعطاها لصديقه في صمت فتفوه الصديق بقسم ما غير ضروري، وهو لا يزال محنقاً من الغضب والخجل، ثم ارتدى قبعته وخرج. وعاد بعد حوالي ساعتين، وجلس متهالكاً على المقعد، وتنهد بصوت عالٍ وقال:

- لقد أنقذ الشرف!.. فلنرحل الآن يا صديقي! لا أريد أن أبقى في هذه المدينة الملعونة دقيقة واحدة.. المحتالون.. جواسيس النمسا!

عندما عاد الصديقان إلى المدينة كان نوفمبر قد حلَّ، وغطى الشوارع ثلج كثير. وكان الدكتور خوبوتوف قد حلَّ محل الدكتور أندريه بيفيمتش، وكان لا يزال يقطن الشقة القديمة في انتظار رحيل أندريه بيفيمتش عن شقة المستشفى.وأصبحت المرأة الدميمة التي كان يسميها طاهيته تقطن بالفعل في أحد أجنحة المستشفى.

وسرت في المدينة شائعات جديدة عن المستشفى. فقيل إن المرأة الدميمة تشاجرت مع المشرف. وأن الأخير زحف أمامها على ركبتيه طالباً الصفح.

واضطر أندريه بيفيمتش في أول يوم لوصوله إلى البحث عن شقة.

وقال له مدير البريد بتردد:

- يا صديقي.. اعذرني على هذا السؤال غير المتواضع: كم لديك من المال؟

فعدّ أندريه يفيمتش ما معه من نقود في صمت، ثم قال:

- ستة وثمانون روبلاً.

فقال ميخائيل إفريانتش في حرج وهو لم يفهم الدكتور:

- لست أسأل عن هذا.. إنني أسأل كم تملك عموماً؟

ـ لقد قلت لك: ستة وثمانون روبلاً.. ليس لديَّ أكثر من هذا.

كان ميخائيل إفريانتش يعتبر الدكتور أندريه شخصاً شريفاً ونبيلاً، ولكنه مع ذلك كان يفترض أن لديه رصيداً من المال يبلغ على الأقل عشرين ألفاً من الروبلات.

أما الآن، وبعد أن عرف أن صديقه شحاذاً وليس لديه ما يعيش به، بكى فجأة لسبب ما وعانق صديقه.

III
(14)

سكن أندريه بفيمتش في منزل امرأة من أحط نساء الطبقة الوسطى تدعى بيلوفا. وكان هذا المنزل يحتوي على ثلاث غرف فضلاً عن المطبخ. شغل الدكتور وداريا.

الغرفتين المطلتين على الشارع أما صاحبة المنزل وأطفالها الثلاثة فقد قنعوا بالغرفة الثالثة والمطبخ. وفي بعض الأحيان كان يأتي عشيقها لقضاء الليل معها، وهو رجل سكير عنيف كثيراً ما كان يلقى الرعب في قلب داريا وفي قلوب الأطفال الثلاثة. ولهذا ما أن يصل هذا الرجل ويجلس على كرسيه في المطبخ ويطلب الفودكا، حتى يسارع الدكتور أندريه إلى إدخال الأطفال الباكين والمفزوعين إلى غرفته ويمهد لهم فراشاً على أرضها لينناموا.

وكما اعتاد أن يفعل دائماً، كان يستيقظ في الساعة الثامنة، ثم يتناول الشاي، ثم يجلس للقراءة في كتبه ومجلاته القديمة. بالطبع لم يكن يملك نقوداً لشراء كتب ومجلات جديدة. ولكي يجنب نفسه الملل من قراءة موضوعات قديمة سبق أن قرأها، راح يشغل نفسه بعمل فهرس مفصل لكتبه، ولصق قصاصات ورقيه بأسماء الكتب على كعوبها. وقد استغرقه هذا العمل أكثر مما كانت تستغرقه القراءة ذاتها. وكان من شأن هذا العمل الرتيب أن يصرفه عن

التفكير بصورة ما.

وأحياناً كان يذهب إلى المطبخ ويعاون داريا في تقشير البطاطس أو تخليص حب الشوفان من سنابله.

أما في يومي السبت والأحد فكان يذهب إلى الكنيسة.

وهناك كان يسند ظهره إلى الحائط ويغمض عينيه، ثم ينصت لجماعة المرتلين ويفكر في أبيه وأمه وفي الجامعة وفي الدين.

وكان ذلك يلقى في قلبه نوعاً من الطمأنينة الحزينة، حتى إنه كان يغادر الكنيسة وهو آسف على أن الصلاة قد انتهت بسرعة.

وقد ذهب إلى المستشفى مرتين لزيارة إيفان دميترتش والتحدث معه.

ولكنه في كلتا المرتين وجده في حالة غضب وهياج شديدين. وقد طلب منه أن يتركه وحده، قائلاً أنه قد سئم الثرثرة الفارغة ويريد أن يتركه الناس الملاعين في المستشفى، في عزلته ووحدته. وفي كل مرة كان أندريه بيفيمتش يودعه متمنياً له ليلة سعيدة، فيجيبه إيفان بقوله: اذهب إلى الشيطان!. ولذلك كان أندريه حائراً فيما إذا كان يصح له أن يذهب إليه مرة ثالثة أم لا، بالرغم من شوقه الشديد إلى الذهاب.

كان من عادة أندريه بيفيمتش في أيامه السابقة أن يقضي وقته بعد

الغداء في ذرع الغرفة جيئة وذهاباً والتفكير خلال ذلك.

أما الآن فكان يضطجع على الأريكة مولياً وجهه نحو ظهرها حتى تحين ساعة الشاي. ويستسلم للتفكير في أمور تافهة لا يستطيع أن يردها عن خاطره.

وقد كان يتألم أشد الألم من عدم منحه معاشاً أو مكافأة بعد أكثر من عشرين عاماً قضاها في الخدمة. نعم إنه كان يعتبر نفسه غير مخلص أو متفان في عمله.

ولكن هذا المعاش يمنح إلى كل شخص قضى مدة في الخدمة سواء كان مخلصاً أو متفانياً في عمله أو كان غير ذلك. وهذا ما تقضي به قوانين العمل الحديثة.

فلماذا إذن كان هو الوحيد الذي استثني من ذلك. لقد كان يخجل من المرور أمام دكان البقالة زو أن تلتقي عيناه بعين صاحب الدكان لأنه كان مديناً له باثنين وثلاثين روبلاً، وكذلك كان مديناً لبيلوفا صاحبة المنزل، وكانت داريا تبيع ملابسه القديمة وكتبه سرًّا وتقول لصاحب المنزل إن الدكتور ينتظر وصول مبلغ كبير من المال.

وكان أندريه بيفيمتش ساخطاً على نفسه كل السخط لأنه أنفق في رحلته ألف روبل، وهي كل مدخراته! ولو بقيت في يده هذه الروبلات الألف حتى هذا الحين لكانت خير عون له في الحياة.

ولم يضايقه أكثر من شعوره بأنه لم يكن وحده. فقد كان خوبوتوف يرى من واجبه أن يزور زميله المريض من حين لحين، ويعتقد أنه يقوم بعلاجه فعلاً. ولذا كان كلما جاء لزيارته أحضر معه زجاجة من بروميد البوتاسيوم وصندوقاً به مسحوق ترابي اللون.

وكذلك كان ميخائيل إفريانتش هو الآخر يعتبر أن واجبه أن يزور صديقه ويحاول أن يرفه عنه. فكان إذا دخل غرفة أندريه بيفيمتش أظهر ألفة غير عادية ومرحاً متكلفاً، وراح يؤكد له أنه يبدو أفضل من ذي قبل، وأنه بحمد الله في طريقه إلى الشفاء التامِّ بدون أدني ريب، ذلك الذي لا يعني إلا أنه يعتبر حالة صديقه ميئوساً منها. ثم هو لم يرد النقود التي اقترضها في وارسو. ولكنه كان قليل الخجل بليد الحس ولذا كان يحاول أن تكون ضحكاته أصخب ونوادره أصرخ من ذي قبل. وكانت نوادره لا آخر لها، وتبدو كأنها قطعة من العذاب بالنسبة لأندريه بيفيمتش وبالنسبة إليه هو نفسه.

وفي حضرته كان أندريه يفيمتش يتمدد عادة على الكنبة مولياً ظهره لصديقه وهو يستمع إليه، وقد أطبق أسنانه. وتترسب المرارة على قلبه طبقات، وبعد كل مرة يزوره فيها صديقه يحس بأن هذه الترسبات أعلى فأعلى، وكأنما تقترب من حلقه.

ولكي يخمد هذه الأحاسيس التافهة كان يسارع إلى التفكير في أنه هو نفسه، وخوبوتوف وميخائيل إفريانتش مصيرهم إلى الزوال إن آجلاً أو عاجلاً، دون أن يخلفوا في الطبيعة حتى مجرد بصمة. ولو تخيلنا أنه بعد مليون سنة حَلَّقت روح ما في الفضاء ومرت بالكرة

الأرضية، فلن ترى سوى الطين والصخور العارية.

سيندثر كل شيء.. ستندثر الثقافة والقانون الأخلاقي، حتى دون أن يغطيها العشب. فماذا يعني الخجل من صاحب دكان البقالة، وماذا يعني خوبوتوف التافه، والصداقة المرهقة مع ميخائيل افريانتش؟ كل هذا هراء وتفاهة.

ولكن هذه الأفكار لم تعد تسعفه. فما أن يتصور الكرة الأرضية بعد مليون سنة، حتى يطل خوبوتوف بحذائه العالي من وراء صخرة عارية، أو ميخائيل افريانتش وهو يقهقه ويثرثر، بل ويسمع همساً خجلاً: «سأرد لك يا عزيزي دين وارسو في الأيام القادمة.. حتماً».

III

(15)

في عصر يوم من الأيام جاء ميخائيل افريانتش لزيارة أندريه بيفيمتش، في حين كان الأخير مضطجعاً على الأريكة. وتصادف أن وصل أيضاً خوبوتوف ومعه زجاجة بروميد البوتاسيوم. فبذل أندريه بيفيمتش بعض الجهد واستوى جالساً على الأريكة معتمداً على إحدى يديه.

وبدأ ميخائيل افريانتش يقول:

- يا صديقي العزيز. إنك تبدو اليوم أكثر إشراقاً من ذي قبل لماذا؟

إنك تبدو رائعاً! رائعاً!

وأضاف خوبوتوف وهو يتثاءب:

- لقد آن الأوان للتفكير في الشفاء. أيها الزميل. لابد أن تكون أنت نفسك قد سئمت هذه الحال!

فصاح ميخائيل افريانتش:

- لماذا؟ إننا لن نلبث أن نصبح أصحاء كالأسود، وسترى أننا سنعيش مائة سنة أخرى!

وأجاب خوبوتوف مطمئناً:

- أنا لا أعرف شيئاً عن هذه السنين المائة. ولكن لا شك أنه يستطيع العيش عشرين سنة أخرى. هيا.. هيا أيها الزميل، كن شجاعاً..

واحتفظ بروحك العالية!

فزأر ميخائيل افريانتش:

- هو هو! سنريك من أي خامة قد صنعنا.. سترى.. ففي الصيف القادم، إن شاء الله، سنهجم على القوقاز، ونطوف بكل جباله على ظهور الدواب. هيه، هيه، هيه! وحينما نرجع من القوقاز، فمن

يدري؟ ربما نكون قد تزوجنا!

وغمز ميخائيل إفريانتش بعينه، ثم واصل كلامه:

- سنزوجك أيها الصديق الهرم.. سترى إن كنا سنزوجك أم لا...

وشعر أندريه بيفيمتش أن الزَّبَد قد صعد حتى حنجرته، وأن قلبه أخذ يخفق خفقاناً شديداً، فنهض قائماً على قدميه دفعة واحدة. وسار نحو الشباك، وصاح:

- يا لكما من سوقيين! ألا تستطيعان أن تدركا مقدار سخفكما؟!

ثم صاح بأعلى صوته، وقد صعد الدم في وجهه وارتعد كل جسمه:

- دعاني وحدي! اخرجا كلاكما! اخرجا!

فهب ميخائيل افريانتش وخوبوتوف واقفيْن، وأخذا يحملقان في وجهه، وقد بدت عليهما أمارات الارتباك أول الأمر، ثم الرعب بعد ذلك. ولكن أندريه بيفيمتش واصل صياحه:

- اخرجا! كلاكما! أيها الغبيان! أيها الأحمقان! .. أنا لا أريد صداقتكما ولا طباعكما .. أيها الصعلوكان! أيها المقززان!

وبعد أن تبادل كل من خوبوتوف وميخائيل نظرات الدهشة والفزع

فيما بينهما، اتجها بظهريهما إلى الباب، ثم خرجا من الممر. في حين التقط أندريه زجاجة بروميد البوتاسيوم وقذف بها خلفهما.

وجرى خلفهما في الممر وهو يصيح بصوت متهدج:

- اذهبا إلى الشيطان! إلى الشيطان!

وبعد خروج الزائريْن أخذ أندريه بيفيمتش يرتعش كما لو كان محموماً وذهب من توه للاضطجاع على الأريكه وهو يكرر: «أناس أغبياء! مجانين». ولكنه هدأ بعد قليل وأسف على أنه جرح شعور صديقه ميخائيل افريانتش. ثم أخذ يتساءل: «أين إذن ذكاؤه ولباقته وتفهمه وعدم اكتراثه الفلسفي؟».

ولم يستطع الدكتور أندريه أن ينام الليل من شدة خجله من نفسه، وحين أصبح الصباح، خرج في نحو الساعة العاشرة وقصد من فوره إلى مكتب البريد ليعتذر لصديقه وكيل المكتب.

ولما رآه ميخائيل افريانتش، بدا عليه التأثر الشديد وراح يتنهد وهو يضغط على يده بحرارة ويقول:

- لن نرجع إلى ما حدث.. ما فات قد مات!

ثم صاح بصوت أزعج كل من في المكتب:

- يا ليوباكين! أحضر كرسيًّا!

وصرخ في وجه امرأة مسكينة كانت تمد يدها بخطاب من خلال القضبان:

- وأنت ألا تستطيعين الانتظار؟.. ألا ترين أني مشغول؟ ثم أدار وجهه من جديد نحو أندريه بيفيمتش وواصل كلامه في نغمات تفيض بالعطف والحنان:

- أنا لم أغضب منك لحظة واحدة، لأني أفهم معني أن يكون المرء مريضاً.. وقد شملنا القلق أنا والدكتور خوبوتوف بسبب النوبة التي فاجأتك بالأمس، وتحدثنا طويلاً بخصوصك. فلماذا يا صديقي العزيز لا تنظر إلى مرضك بعين الجد؟ إنه لا يصح لك أن تستمر في تجاهل حالتك بأية حال! وأرجو أن تغفر لصديقك هذه الصراحة.

ثم خفَّض من صوته واستمر يقول:

- إنك تعيش في جو ضار كل الضرر بحالتك، فها أنت ذا مطروحاً دون عناية ودون وسائل علاج وحولك خمسة عفاريت لا يكفون عن إقلاق راحتك.. والآن اتفقنا.

الدكتور وأنا على أن نتوسل إليك في قبول نصيحتنا وهي أن تدخل المستشفى! فهناك الطعام الصحي، وسيعنى بك وتعالج من مرضك. لا شك أن يفجيني فيدروفتش مخلوق منحط، وهذا بيني وبينك، ولكنه طبيب ماهر، ويمكن الاعتماد عليه، وقد وعدني بأنه

سيهتم بك.

وتأثر أندريه بيفيمتش أشد التأثر بهذا الاهتمام النابع من أعماق القلب، وبالدموع التي رآها تنحدر فجأة على خدي وكيل البريد، فهمس إليه وقد وضع يده فوق قلبه:

- لا تصدقهم يا صديقي العزيز، لا تصدقهم! فكل هذا كذب في كذب. وكل خطئي أنني لم أقابل في مدينتنا خلال هذه السنين العشرين إلا رجلاً ذكيًّا واحداً، وهو رجل مجنون. أما أنا فلست مريضاً. ولكني أُوقعت في حلقه مفرغة لا مخرج لي منها. ولست أبالي بأي شيء فافعل ما تريد.

- اذهب إلى المستشفى يا صديقي!

- أنا لا أبالي أين أذهب، وفي وسعك أن تدفنني حيًّا إذا أردت.

- عدني أيها الصديق الهرم، أنك ستطيع الدكتور يفجيني فيدروفتش في كل شيء!

- وهو كذلك، لك عليّ هذا، ولكني أكرر لك أنني أُوقعت في حلقة مفرغة، وأنه منذ الآن أصبح كل شيء.. حتى أصدق عطف يغدقه عليّ من يريدون لي الخير..

يتجه إلى أمر واحد فقط وهو تحطيمي.. ليكن!.. إنني الآن في طريقي إلى الهلاك، ولديَّ من الشجاعة ما يجعلني أفطن إلى ذلك.

- ولكنك ستشفى يا صديقي العزيز.

فقال أندريه بيفيمتش بانقباض:

- ما فائدة مثل هذا الكلام؟ إن كل شخص تقريباً لابد أن يقع في هذا المأزق، حينما توشك حياته على الانتهاء. فسواء أخبروك أن كليتيك في حالة سيئة أو أن قلبك متضخم أو قالوا لك إنك مجنون أو مجرم. باختصار بمجرد أن يتجه إليك انتباه الناس، تستطيع التأكد من أنك دخلت حلقة مفرغة. وأنك لن تجد مخرجاً منها.

وإذا حاولت الخروج منها، وجدت نفسك وقد غطست فيها إلى أعمق مما كنت. ولذا يحسن بك أن تستسلم، لأن أي مجهود بشري سيعجز حينئذ عن إنقاذك، هذا هو رأيي على الأقل.

وقبل أن يودعه وينصرف حمله ميخائل افريانتش على أن يكرر له ما وعد به.

وفي مساء اليوم نفسه حضر خوبوتوف على غير انتظار في معطفه المصنوع من فرو الغنم وحذائه الطويل، وقال كما لو لم يكن قد حدث أي شيء:

- جئت إليك من أجل القيام ببعض العمل أيها الزميل، حيث أريد أن تشترك معي في فحص أحد المرضى. فهل تساعدك قواك على الذهاب معي؟

- ظن أندريه بيفيمتش أن خوبوتوف يريد أن يرفّه عنه بنزهة قصيرة معه، وأن يقدم له فرصة كسب القليل من النقود. فلبس قلنسوته ومعطفه وخرج معه.

وكان يشعر بالسرور من هذه الفرصة التي أُتيحت له لكي يكفِّر عن الغلطة التي بدرت منه في اليوم السابق. وامتلأت نفسه بالعرفان لخوبوتوف حين رأى أنه لا يذكر كلمة واحدة عن هذا الحادث حتى لا يجرح مشاعره، على ما بدا له، وقد أدهشه أن يجد كل هذه الرقة في الإحساس لدى رجل مجرد من كل رقة ومن كل إحساس.

وسأل أندريه بيفيمتش:

- وأين مريضك؟

فقال خوبوتوف:

- في المستشفى. وقد كنت أريد أن أستشيرك في حالته منذ زمن ما، وهي حالة غريبة حقًّا.

ودخلا فناء المستشفى، ومرا بجانب المبنى الرئيسي، ثم اتجها إلى العنبر الذي تحجز فيه حالات الأمراض العقلية. ولسبب ما لم ينبس أحد ببنت شفة طوال هذه الفترة. وحين دخلا العنبر هبّ نيكيتا واقفاً وأدى التحية العسكرية كالمعتاد!.

وبعد أن دخلا قال خوبوتوف لأندريه بيفيمنتش:

- إن أحد هؤلاء لديه مضاعفات في الرئة. فانتظرني هنا دقيقة واحدة، حتى أحضر لك سماعة.

ثم خرج.

III
(16)

كان الظلام يزحف على المكان. وكان إيفان دميترتش مضطجعاً على فراشه، وقد دفن نصف وجهه في الوسادة، وجلس الرجل المشلول دون حراك، وراح يبكي في هدوء ولا يكف عن تحريك شفتيه. أما الفلاح البدين ومصنف الخطابات فكانا نائمين. والعنبر كله كان غارقاً في سكون تام.

وجلس أندريه بيفيمتش على حافة فراش إيفان دميترتش. ومرت نصف ساعة، ولكن بدلاً من أن يأتي خوبوتوف دخل نيكيتا متأبطاً بين ذراعيه جلباباً وبعض الملابس الداخلية ونعلين. وقال بصوت هادئ:

- تفضل غيّر ملابسك يا سيدي.

ثم أشار بيده إلى فراش خالٍ وُضع في الغرفة حديثاً، وأضاف:

- هذا فراشك ستنام عليه، وأرجو ألا يكون في ذلك ما يضايقك إن شاء الله.

ففهم أندريه بيفيمتش كل شيء، ودون أن ينبس بكلمة واحدة سار إلى الفراش الذي أشار إليه نيكيتا وجلس عليه.

ولما أدرك أن بيكيتا ينتظره، نزع عنه ملابسه كلها وهو يشعر بخجل قاتل. ثم بدأ يلبس ملابس المستشفى. وقد كان اللباس أقصر من اللازم بكثير، والقميص أطول مما يجب، والجلباب يفوح برائحة السمك المملح.

وكرر نيكيتا:

- ستنام عليه، إن شاء الله.

وبعدها تناول ملابس أندريه بيفيمتش، ثم خرج وأغلق الباب من ورائه، وأخذ أندريه يجذب حوله أطراف جلبابه ويحدّث نفسه في حياء قائلاً: «كله سواء.. حلة السهرة والحلة الرسمية والجلباب..» ولكن أين ساعته؟ ودفتر المذكرات الذي كان يحتفظ به في جيبه الجانبي؟.. وأين ذهب نيكيتا بملابسه؟. على كل حال من المحتمل ألا يلبس قط فيما بقى له من حياته سرواله وجاكتته وحذاءه.

ولكن كل ذلك كان يبدو له أول الأمر غريباً، بل وغير مفهوم.

نعم إن أندريه بيفيمتش كان لا يزال على اقتناعه بأنه لا يوجد أدنى فرق بين منزل السيدة بيلوفا والعنبر رقم 6. وأن كل ما في هذا العالم حمقٌ وغباء في غباء. غير أن يديه أخذتا ترتجفان ودبت البرودة في قدميه، وكان قلبه يزداد خفقاناً كلما فكر في أن إيفان دميترتش سيجده في ملابس المستشفى حينما يهب من نومه.

فنهض واقفاً وسار بضع خطوات في العنبر، ثم عاد إلى الجلوس.

ومرت نصف ساعة، ثم ساعة، وبدأ أندريه بيفيمتش يشعر بالضيق والملل من الجلوس في العنبر، فهل كان من الممكن أن يعيش فيه يوماً كاملاً، وأسبوعاً، بل وسنين عديدة ككل أولئك الناس الذين هم حوله؟. وبقى جالساً في مكانه فترة. ثم نهض وأخذ يذرع العنبر طولاً وعرضاً. ثم عاد إلى الجلوس من جديد.

وبعد ذلك استطاع أن يذهب إلى النافذة ويطل إلى الخارج. ثم يواصل السير. ولكن ماذا بعد ذلك؟ أيقضي كل وقته جالساً هناك كالتمثال؟ كلا، كلا، هذا مستحيل.

وأخيراً اضطجع أندريه بيفيمتش على فراشه. ولكنه لم يلبث أن هبّ واقفاً ليمسح بكم جلبابه العرق البارد المتصبب من جبينه، وقد شعر وهو يفعل ذلك أن وجهه يفوح برائحة السمك المملح.

وهنا قذف أمامه بذراعيه من شدة الضيق وقال: «لابد أن يكون في المسألة سوء تفاهم يجب عليّ أن أكلمهم. إن المسألة فيها سوء تفاهم».

وفي هذه اللحظة استيقظ إيفان دميترتش من نومه. فجلس في مكانه معتمداً برأسه على قبضة يده، ويسقط أمامه على أرض العنبر، ثم ألقى نظرة تبرم على الدكتور أندريه.

ويبدو أنه لم يفهم شيئاً في الموضوع بادئ ذي بدء، ولكن لم تمض لحظة حتى بدت على وجهه علائم الانتصار ومخايل القسوة، ثم

قال بصوت يخامره النوم، وعيناه لا تزالان شبه مغمضتين:

- يسرني أن أراك هنا أيها الأخ، فقد كنت تمتص دماء غيرك، أما الآن فسيمتص دمك.. شيء رائع!

فتمتم أندريه بيفيمتش مذعوراً من كلمات إيفان دميترتش: «إنه سوء تفاهم».، ثم هز كتفيه وكرر جملته مرة أخرى: «إنه سوء تفاهم». وبصق إيفان دميترتش على الأرض مرة أخرى، ثم اضطجع وراح يزمجر بقوله:

- يا لها من حياة ملعونة! لا شك أن مما يجعلها في هذه الدرجة من السماجة والشناعة أنها لن تنتهي بالتعويض عن الآلام ولا بالسمو إلى قمة القمم كما يحدث في المسارح، بل بالموت، حيث يقبل اثنان من الممرضين ويلتقطان الجثة الميتة من الذراعين والساقين ليلقيا بها في الحفرة. أف.. ما علينا!.. فسيأتي يومنا في العالم الآخر.. وسيعود شبحى لإلقاء الرعب في قلوب هؤلاء الخنازير. وسيشيب شعرهم من هول ما سيرون مني.

وفي هذه اللحظة، عاد موسى اليهودي من دورته. وما أن لمح الدكتور أندريه حتى مد إليه يده قائلاً: أعطني كوبيك!

III
(17)

اتجه أندريه بيفيمتش إلى الشباك ونظر من خلاله إلى الحقول. وكان الظلام قد أرخى سدوله، ومن الجهة اليمنى ظهر القمر بارداً قرمزيَّ اللون. وكان يرى بالقرب من سياج المستشفى، على بعد لا يزيد عن سبعمائة قدم مبنى أبيض اللون محاطاً بحوائط من الحجر. ولم يكن هذا المبني غير السجن.

وحدّق أندريه بيفيمتش ببصره في الفضاء. وقال في نفسه: «إذن هذه هي إحدى حقائق العالم الواقعي!» ثم استولى عليه نوع من الخوف.

وكان كل شيء يوحي بالخوف: القمر والسجن والمسامير المدببة على طول السياج، وتلك النيران المنبعثة من أفران جيرية بعيدة. وفجأة سمع أندريه بيفيمتش من خلفه زفيراً صادراً من قلب مكلوم. والتفت وراءه فرأى رجلاً قد غطى كل صدره بنجوم ونياشين لامعة، وكان الرجل يبتسم ويغمز بعينيه بشكل منفر، وكان ذلك أيضاً مما يوحى بالخوف.

وحاول أندريه بيفيمتش أن يقنع نفسه بأنه لا يوجد في القمر ولا في مبنى السجن شيء غير عادي، وأن الأشخاص سليمي العقول يتحلون هم أيضاً بالنياشين. وأن كل شيء سيصير إلى تراب ونتن،

إن عاجلاً أو آجلاً. ولكنه شعر دفعة واحدة بأن اليأس قد انتصر عليه، فأمسك قضبان الشباك بكلتا يديه محاولاً هزها، ولكنها كانت أقوى من أن يستطيع تحريكها أدنى حركة.

وحينئذٍ خطا في طريقه، محاولاً أن ينفض عنه هذا الرعب، حتى وصل إلى فراش إيفان دميترتش، فجلس على حافته. وأخذ يتمتم له، وهو يمسح قطرات العرق البارد المتجمعة على جبينه: «لقد خار قلبي يا صديقي. لقد خار قلبي».

فقال له إيفان دميترتش متهكماً:

- حاول أن تتفلسف!

وأجابه أندريه بيفيمتش:

- يا إلهي! يا إلهي!.. لقد كان يسليك فيما مضى أن تلاحظ أن الناس جميعاً في روسيا، حتى العوام منهم يتفلسفون، وذلك بالرغم من عدم وجود مدرسة فلسفية فيها. ولكن أي ضرر يمكن أن ينتج من تفلسف العامة؟.

وهنا اختنق صوته كما لو كان على وشك الصياح، أو يحاول استدرار عطف زميله في العنبر، ثم واصل كلامه قائلاً:

- لماذا إذن هذا الضحك الساخر يا صديقي العزيز؟ وماذا بقى لقطيع العوام غير التفلسف ما دام لا يجد ما يرضيه؟ إن كائناً

بشريًّا ذكيًّا مستقلًّا متعلماً لا يجد أمامه إلا أن يصبح طبيباً في مدينة صغيرة قذرة، جرداء. وأن يكرس بقية حياته للحجامة ودود العلق ولبخات الخردل! يا للدجل والحقارة والسوقية! آه يا إلهي!.

- إنك تقول كلاماً لا معنى له! إذا لم تكن تريد أن تكون طبيبًا، فلماذا لا تصير وزيراً للصحة؟

- كلا. كلا. ليس في مقدور المرء أن يفعل شيئاً! إننا ضعفاء يا صديقي.. فقد كنت لا أعبأ بشيء. وكنت أفكر تفكيراً سليماً. ولكن قلبي قد خار فور اللحظة التي مسّني فيها الضنى.. انهيار.. إننا ضعفاء تعساء.. وأنت أيضاً يا صديقي! إنك ذكي راجح العقل أرضعتك أمك من ثديها أنبل الصفات. ولكنك لم تكد تبدأ الحياة حتى برمت ومرضت.. ضعفاء.. ضعفاء!

وكان هناك شيء آخر إلى جانب الخوف والاشمئزاز، بدأ ينخر في نفس أندريه بيفيمتش بمجرد أن آذنت الشمس بالغروب ولم يعفر له كنها. وأخيراً أدرك أنها الرغبة الملحة في البيرة والسجائر.

وقال:

- سأتركك لحظة واحدة يا صديقي.. سأطلب إليهم أن يمدونا بمصباح، أنا لا أستطيع أن أطيق ذلك.. لا أستطيع.

وبعد ذلك ذهب أندريه بيفيمتش نحو الباب وفتحه، ولكن نيكيتا قفز أمامه على التو وسد عليه الطريق. ثم قال:

- إلى أين تريد أن تذهب.. كل ذلك ممنوع! فهذا أوان النوم! فذهل أندريه بيفيمتش من هول المفاجأة، ولكنه تجلَّد وقال:

- أريد فقط أن أخرج لبضع دقائق.. لمجرد القيام بدورة في الفناء.

وأجاب نيكيتا:

- كلا.. كلا.. هذا غير مسموح به. وأنت نفسك تعرف ذلك.

ثم رد الباب بوجهه وضغط عليه بظهره.

فراح أندريه بيفيمتش يهز كتفيه ويتساءل:

- وهل في خروجي أي إيذاء لإنسان؟.

ثم قال بصوت متهدج:

- ليس في وسعي أن أفهم ذلك يا نيكيتا. فأنا لا أريد أن أخرج. يجب أن أخرج!

وزجره نيكيتا بقوله:

- أنت الآن تخالف اللوائح بإثارة الشغب وإقلاق راحة من في العنبر.

فثار ثائرة إيفان دميترتش فجأة وقفز من مكانه. ثم صاح بأعلى

صوته:

- ما هذا الخزي؟ بأي حق يمنع الناس من الخروج؟ إني أعلم علم اليقين أن القانون يقرر بكل وضوح أنه لا يحق حرمان إنسان من حريته دون محاكمة. هذا اعتداء صارخ!

مجرد تحكم!

ووجد أندريه بيفيمتش في هذا الدعم غير المتوقع ما شجعه على الإصرار على مطلبه فقال:

- نعم.. إنه تحكم لا مراء فيه! أريد أن أخرج! لا بد أن أخرج، ليس من حق أحدٍ أن يمنعني!.. قلت لك أن تدعيني أخرج.

وصاح إيفان دميتريتش وهو يقرع الباب بقبضة يده:

- افتح الباب وإلا حطمته!.. افتح أيها الجزار!

وتبعه أندريه بيفيمتش قائلاً، وجسمه كله يهتز من شدة الانفعال:

- افتح الباب.. أنا مصر على الخروج!

وأجابه نيكيتا من خلف الباب:

- استمر على إصرارك.. استمر!

- على الأقل اذهب وادع يفجيني فيدوروفيش! قل له إني أسأله أن يأتي إلى هنا دقيقة واحدة!

- سيأتي دون دعوة، ولكن غداً.

فقال إيفان دميترتش:

- إنهم لن يدعونا نخرج! بل سيتركوننا هنا حتى نتعفن!

آه يا إلهي! أيمكن ألا يكون هناك جحيم في الحياة الأخرى، وأن يُفغر لهؤلاء المجرمين؟ أين العدالة؟.. افتح الباب أيها الوغد، إني أكاد أختنق!..

ثم صاح بصوت مجلجل، وألقى بكل ثقله على الباب:

- افتح وإلا نسفت مخي.. أيها القتلة!

وفتح نيكيتا الباب دفعة واحدة، ونحَّى أندريه بيفيمتش جانباً مستخدماً ذراعيه. وإحدى ركبتيه، ثم رفع لكمته إلى أعلى وهوى بها على وجهه. وهنا شعر أندريه بيفيمتش كأن موجة عاتية من الماء المالح قد لفت جسمه من قمة رأسه إلى إخمص قدمه، ثم دفعته نحو فراشه.

والواقع أن طعم الملح قد انتشر في فمه حقيقةً لا مجازاً؛ لأن الضربة التي تلقاها أدمت فكيه. وقد حرك ذراعيه كما لو كان

يجاهد من أجل أن يطفو على السطح، فوقعت يده على ظهر أحد الأسرة، وفي الوقت نفسه شعر أن نيكيتا قد ناوله ضربتين أخريين على ظهره.

وأصدر إيفان دميترتش صرخة مدوية، ذلك أنه هو الآخر تلقى نصيبه من الضربات.

وبعد ذلك خيم الهدوء، وراح القمر يبعث أشعته الباهتة من خلال القضبان فظهر على أرض العنبر ظل يشبه الشبكة.

وكان كل شيء يلقى الرعب في القلوب. واضطجع أندريه بيفيمتش على فراشه وهو يحاول أن يكتم أنفاسه، ويترقب خائفاً أن يتلقى ضربة أخرى، وكان يشعر كأن أحداً ما قد تناول منجلاً وقذف به في جسمه ثم أداره عدة مرات في داخل صدره وبطنه.

وقد اشتد به الألم حتى راح يعض الوسادة وكانت أسنانه تصطك.

وفجأة ومضت في خاطره فكرة ما من خلال الحطام الذي يملأ نفسه، واستولت على كل عقله. فكرة واحدة، لكنها مفزعة وقاصمة.

وهي أن الألم الذي كان يعانيه في تلك اللحظة قد عاناه أولئك الأشخاص الذين يبدون كالظلال السوداء في ضوء القمر، وما زالوا يعانونه في كل يوم منذ سنين عديدة. فكيف تأتَّى أنه ظل أكثر من عشرين عاماً لا يعرف عنه شيئاً، أو لا يريد أن يعرف عنه

شيئاً؟

إنه لم يكن قد عرف الألم ولم تكن لديه أقل فكرة عنه، ولذلك لا يجوز عليه اللوم، ولكن ضميره الذي لا يقل عنفاً ولا قسوة عن قلب نيكيتا قد بعث في ظهره رعدة باردة. وعندئذٍ هب من مكانه يريد أن يصيح بأعلى صوته، وأن ينقض على نيكيتا وخوبوتوف والمعاون والمساعد الطبي فيقتلهم، ثم يقتل نفسه بعد ذلك.

ولكن صوته خذله ولم تطعه ساقاه، فتشبثت يداه بطوق جلبابه وقميصه، وراح يجذبهما بكل قواه، ثم انقلب على فراشه فاقد الوعي.

III
(18)

استيقظ في صباح اليوم التالي على شعوره بدقات متوالية في رأسه تكاد تحطمه، وطنين حاد في أذنيه يكاد أن يصمهما، وكانت كل عظمة من عظام جسمه تكاد أن تتداعى من الألم. ولم تكن ذكرى الضعف الذي بدا منه بالأمس تسبب له أدنى خجل، فالواقع أنه قد سلك مسلك الجبناء وسمح لنفسه بالخوف حتى من القمر، وأرخى العنان بكل إخلاص لأفكار ومشاعر لم يكن يظن لها وجوداً في نفسه، وذلك كالفكرة القائلة بأن عدم الشبع يؤدي بقطيع العوام إلى التفلسف، ولكنه الآن لم يكن يعبأ بأي شيء.

ولم يتناول طعاماً ولا شراباً، ولكنه ظل مضطجعاً في فراشه دون حركة ودون كلام. وحينما جاءوا لاستجوابه قال في نفسه»أنا لا أعبأ بشيء. لن أجيب على أسألتهم. لا أعبأ بشيء؟«.

وبعد الغداء، جاء ميخائيل إفريانتش لزيارته ومعه شاي ورطل من العنّاب. وجاءت داريا أيضاً حيث وقفت ساعة بجانب فراشه، وعلى وجهها علائم الحزن الصامت. وكذلك زاره الدكتور خوبوتوف ومعه زجاجة من بروميد البوتاسيوم. وأمر نيكيتا بأن يبخر العنبر بأي شيء.

ونحو المساء مات أندريه بيفيمتش بنوبة صرع. فقد شعر أول

الأمر برعشة حمى وغثيان، وأحس كأن مادة لزجة انتشرت على كل جسمه، حتى أطراف أنامله، وكانت قد انبعثت من معدته حتى وصلت إلى رأسه، ثم نفذت إلى أذنيه وعينيه. وأصبح كل شيء أخضر اللون أمام عينيه. وفهم أندريه بيفيمتش أن هذه هي النهاية، ، وتذكر إيفان دميترتش وميخائيل افريانتش وملايين غيرهما يؤمنون بالخلود. فهل صحيح أن هناك شيئاً من هذا؟

ولكنه على كل حال لم يكن يشعر بأي رغبة في الخلود، وكل ما في الأمر أنه قد خصه بفكرة عابرة، ورأى قطيعاً من غزلان الرنة كان قد قرأ عنه في اليوم السابق ينطلق وراءه، ورأى فيه جَمالاً وجلالاً غير عاديين، ثم رأى امرأة ريفية تمد يدها بخطاب مسجل.. وسمع ميخائيل إفريانتش يقول بعض الكلمات. ثم اختفى كل شيء وفقد أندريه بيفيمتس الوعي إلى الأبد.

وجاء اثنان من الممرضين والتقطا جثته من اليدين والساقين وحملاه إلى كنيسة المستشفى. وهناك وضع على منضدة دون أن تغمض عيناه. وفي الليل كان القمر يبحث بضيائه عليه.

وفي صباح اليوم التالي جاء سرجي سرجيش وصلى عليه أمام صورة المسيح، وكان كل كيانه يفيض بالورع والتقوى. ثم أغمض لرئيسه السابق عينيه.

وبعد ذلك بيومين دُفن أندريه بيفيمتش، ولم يشيع جنازته إلا ميخائيل افريانتش وداريا.

III

ظهر الغلاف

أنطون تشيخوف مبدع هذه المجموعة المختارة من القصص القصيرة: «عنبر 6 وقصص أخرى» روسي الأصل، ولد سنة 186 ومات سنة 1904، بعد رحلة حياة قصيرة، أنجز خلالها عدداً كبيراً من القصص القصيرة والروايات والمسرحيات، وكلها وضعته في مقدمة أهم كُتَّاب الأدب عموماً والقصة القصيرة خصوصاً.

من أعماله الروائية: «الفلاحون» و«الراهب الأسود» و«رواية رجل مجهول» و«ثلاث سنوات».

ومن مسرحياته: «طائر النورس» و«بستان الكرز» و«العم فانيا».

ومن قصصه القصيرة الشهيرة: «موت موظف» و«عنبر 6» و«الحرباء» و«لجرادة» و«السيدة صاحبة الكلب» وغيرها العشرات مما لا يزال يُقرأ حتى الآن.